معالم أصول الدين

(دروس في العقيدة للناشئة والشباب)

الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

الصف	**عبد الواحد عبد الله اللاحجي**
تنسيق وإخراج:	**حفظ الله أحمد أحمد عقيل**

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء

(   )

التنفيذ الطباعي

دار الإمام زيد بن علي للطباعة والنشر

تلفون (٧٧١٢٢٣٥٧٨)

معالم أصول الدين

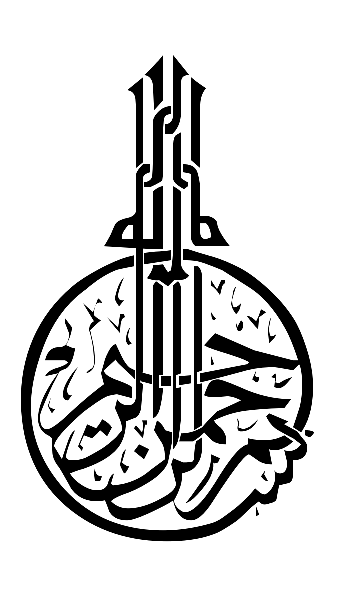
(دروس في العقيدة للناشئة والشباب)

الكتاب الأول

(التوحيد - العدل)

تأليف

عبد الرحمن محمد عبد الملك المروني



إهـــداء

إلى: " صاحب القلب النوراني المضيء.. الذي امتلـك عزيمـة المجاهـدين.. وتواضع المؤمنين.. وصبر المتقين.. وهمّة العارفين.. وعفّـة الزاهـدين.. وسـخاء المكثرين.. وشجاعة الموقنين.. وتقوى العالمين.. " [١]

إلى: من كان سببا في تنوير بصيرتي في مسيري إلى الله ..

وكان لي ولغيري من طلاب العلم القدوة الحسنة، والرفيق الناصـح، والمـربي الحنون ..

العلامة المجاهد **علي بن أحمد بن يحيى الشامي** رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ..

أُهدي هذا الكتاب ..

المؤلف

(١) من مقالة للأستاذ القدير/ عبدالله هاشم السياني، كتبها في تأبين العلامة الشامي رحمه الله .

مقـدّمــة

الحمد لله الأعز الأجل، الواحد الأحد، الذي لا كفؤ له ولا مثـل، والصـلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين، المخاطب في كتاب الله الكريم، بقولـه عـز من قائل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّـهُ وَاسْـتَغْفِرْ لِـذَنبِكَ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ﴾[محمد:١٩]، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار، وصحابته الراشدين الأخيار، مـن المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بإحسان من الأولياء والأبرار، وبعد..

فإنه ما من شك أنّ العقيدة الإسلامية وهي تستند إلى الـوحي الإلهـي الـذي تولى الله حفظه قد جاءت نقية صافية، لتوجه الإنسان التوجيه السليم نحو تحقيق الهدف الذي خلق من أجله، ألا وهو عبادة الإله الحق الذي لـه الخلـق والأمـر، والسير وفق توجيهات الخالق جل وعلا التي تحقق للإنسان السعادة وتوصله إلى بر الأمان وسبيل النجاة، غير أنه ومع اتساع رقعة الإسلام، وتعاقـب الأجيـال، فقد أصيبت هذه العقيدة ببعض الشوائب، واستطاع أعـداء الإسـلام أن يثـيروا حولها الكثير من الشبهات، الأمر الذي نـدب علـماء الإسـلام للتصـدي لتلـك الهجمات الشرسة على العقيدة الإسلامية والرد على تلك الشـبهات، ممـا أدى إلى نشأة علم الكلام وتطوره، وظهر كمّ هائل من المؤلفات في هذا الفـن، غـير أنـه داخلها الكثير من التفريعات والمسـائل الكلاميـة الفلسـفية، ونشـأعنها ظهـور

الفرق الكلامية والمذاهب العقائدية، كالمعتزلة، والأشاعرة، والجهمية، وغيرها.

وكان من فضل الله تعالى على أمة الإسلام أن قيّض الله من أهل البيت النبوي ومن سار على نهجهم أئمة أعلام، وعلماء أفذاذ، نهلوا من مناهل صافية، وأخذوا العلم من مصادره الصحيحة، مجرداً عن الأهواء والعصبيات، وكان لهم باع طويل في فهم كتاب الله تعالى، والتأمل في عجائبه، والتعرف على مكنون أسراره، ومن ثم جعلوا كتاب الله تعالى - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - هو المرجع والحكم، وأوصلوا إلينا هذا العلم -الذي هو علم أصول الدين- عبر تلك المتون والشروح والمؤلفات الضخمة صافياً نقياً، بعد أن غربلوا كتب أصحاب الفرق والعقائد، وعرضوا ما في بطون تلك الكتب على كتاب الله تعالى، والصحيح من السنة النبوية، والراجح الذي يحكم به العقل وتقبله الفطرة السليمة.

ولكن لما كانت الفترة الزمنية بيننا وبين زمن تأليف تلك المتون والشروح بعيدة، فقد أصبح من الصعب على الواحد منا ولا سيما الشباب اليوم استيعابها وفهم معانيها، لذلك فقد أصبح من الضروري بمكان أن تكون هناك مؤلفات ميسرة تبسط العبارات، وتوضح المعاني، وتقرب الفهم للمسائل الأصولية، وتعرض أدلتها العقلية والنقلية بأسلوب عصري يكون قريباً من أساليب المناهج الدراسية الحديثة.

ومن أجل ذلك بذلت جهدي وسعيت سعيي منذ أن كنت مدرِّساً بمدرسة دار العلوم العليا بصنعاء- وكان يصعب علينا آنذاك إيجاد المنهج الدراسي

المبسط الذي يتناسب مع قدرات الطلاب واستيعابهم- لوضع مناهج دراسية لبعض المواد الشرعية التي كانت تدرّس آن ذاك، والتي منها مادة التوحيد، وشرعت في تجميع هذه المادة وغيرها، وصدر قرار إلغاء مدرسة دار العلوم العليا قبل استكمال هذا المشروع، وحالت الظروف دون طباعة هذا الكتاب والكتب الأخرى المصاحبة له[1] .

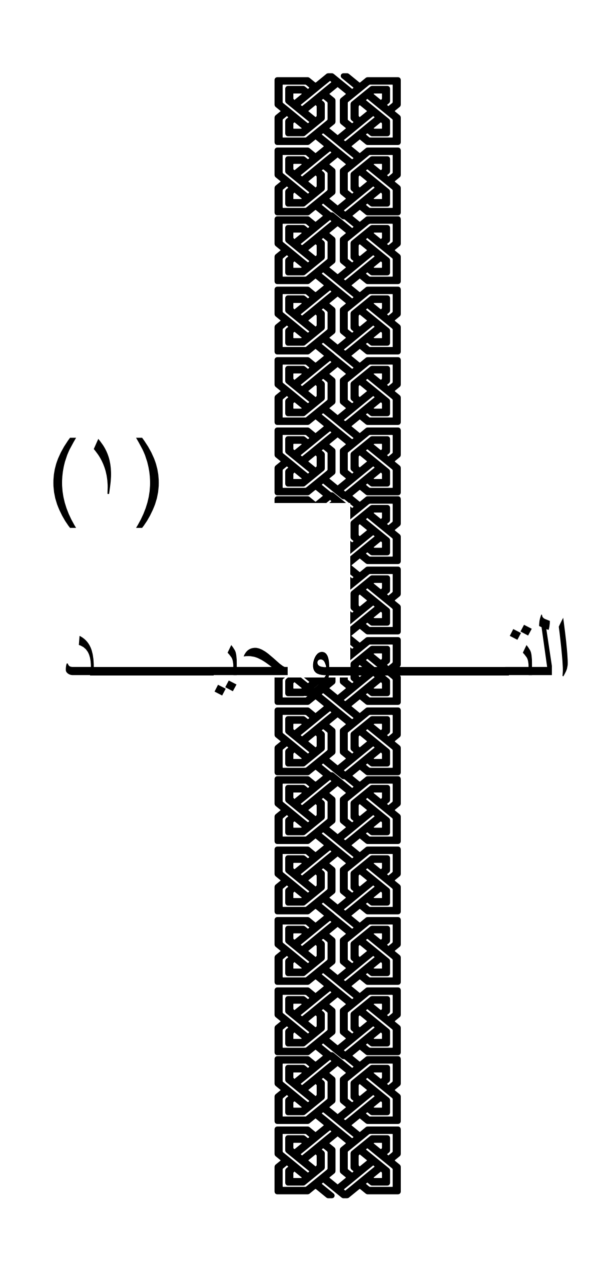
وقد كنت قمت بعرض ما كنت قد جمعته من هذه المادة على بعض العلماء والأساتذة، وقد أفادوني كثيراً بملاحظاتهم على الكتاب، وأصلحت ما أمكن إصلاحه، وأبقيت ملاحظات بعضهم في بعض المواضع التي سيلاحظها القارء في مواضعها.

ولا يفوتني هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل لهم ولكل من ساهم في طباعة هذا الكتاب وإخراجه إلى النور، سائلاً المولى عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه تعالى ولي الهداية والتوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

بقلم/ عبد الرحمن محمد عبد الملك المروني

صنعاء – فبراير ٢٠١٠م

(١) وهي: كتاب من هدي النبوة (حديث)، وكتاب الفصول المهمة من علم الأصول (أصول فقه)، وكتاب التقريب والبيان لمعاني آيات القرآن – الفاتحة وجزء عم (تفسير).



(١)

التــــوحيـــد

مدخل إلى التوحيد

مفهوم التوحيد

التوحيد: هو الإيمان بوحدانية الله تعالى المطلقة، وهو أنه واحد لا ثاني معه، ولا شريك له، ولا نظير له ولا شبيه، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في صفاته، وقد سُئِل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن التوحيد والعدل، فقال: «التَّوْحِيدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ وَالْعَدْلُ أَلَّا تَتَّهِمَهُ».

ومعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التَّوْحِيدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ» أي: أن توحيد الله تعالى هو تنزيه الله سبحانه عن مشابهة المخلوقات، بحيث لا يخطر على بال الموحّد تصور الذات الإلهية أو وصفها بشيء من صفات المُحدَثات، وإلى ذلك أشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بعض خطبه بقوله: «مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ[1]، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ[2] مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ»[3].

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ

---

(١) كَيَّفَهُ: وصفه بصفات المحدثات.

(٢) صَمَدَهُ: قصده.

(٣) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (١٨٦).

الصِّفَاتِ عَنْهُ »[1].

وقد تضمنت هذه الكلمات بيان حقيقة التوحيد، وأشارت إلى مضمونه، كما أشارت إلى العناصر الضرورية اللازم توافرها في عقيدة التوحيد وهي:

١- معرفة الله تعالى بأنه واجب الوجود.
٢- معرفة الله تعالى بأنه خالق هذا العالم وموجده.
٣- الإيمان بأنه تعالى واحد لا شريك له ولا شبيه.
٤- الإخلاص لله تعالى بتنزيهه عن كل نقص وعن مشابهة الأجسام والمحدثات في جميع الخصائص والصفات.

حكم تعلم علم التوحيد وأهميته

يتضمن علم التوحيد الأدلة العقلية والنقلية لإثبات وجود الله تعالى ونفي صفات النقص عنه، ومعرفة مايجب في حق الله تعالى، وما يليق بجلاله وما لا يليق ، إضافة إلى معرفة الأمور الغيبية الواجب الإيمان بها ، الواردة في كتاب الله تعالى ، وفي الصحيح القطعي من السنة النبوية على صاحبها وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

وما من شك أن علم التوحيد هو أصل العلوم الدينية وأشرفها وأفضلها، لأنه العلم الموصل إلى العلم بالله تعالى ومعرفته والإيمان به، لذلك فإن تعلم علم التوحيد فرض عين على كل مكلف، وعلة وجوبه أن الله تعالى أوجب على عباده عبادته

(١)نهج البلاغة، ج١،الخطبة رقم (١).

وطاعته، فقال عز من قائل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**﴾[الذاريات:٥٦-٥٧]، وقال جل وعلا: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة:٢١].

فهذه الآيات ونحوها تدل على وجوب عبادة الله تعالى وطاعته، أضف إلى ذلك أنه لايصح من الإنسان عبادة، ولا يقبل له عمل، إلا مع الإيمان الكامل الخالي من الشك والشبهة ، والعقيدة الصحيحة الخالية من شوائب الشرك ولوثات الكفر والنفاق، وإنه لن يتأتّى ذلك إلا بعد الإيمان بالله تعالى ومعرفته والعلم به، ولمّا كان ذلك لا يتم إلا بتعلم العلم الموصّل إلى ذلك -وهو علم التوحيد- فإن تعلم هذا العلم فرض واجب على كل مكلف، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب - على نحو القاعدة المقررة عند علماء الأصول.

فضل علم التوحيد ومنزلته

إنه لما كان الإيمان بالله تعالى ومعرفته والعلم به من أوجب الواجبات، فقد جاء الأمر به في كتاب الله الكريم بقول الله عز وجل: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾[محمد:١٩]، وأخبر الرسول ﷺ أن معرفة الله تعالى والعلم به رأس العلم، وذلك فيما روي أن رجلاً جاء إليه فقال: يا رسول الله علمني من غرائب العلم. فقال ﷺ: «وما صنعت في رأس العلم حتى تسألني عن غرائبه؟!». قال: وما رأس العلم يا رسول الله؟ قال: «معرفة الله حق معرفته»، قال: وما معرفة الله حق معرفته؟ قال: «أن تعرفه إلهاً واحداً ظاهراً باطناً

أولاً آخراً لا كفؤ له ولا مثيل»[1] .

ومما يدل على شرف هذا العلم وبيان فضله ما روي أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي العلم أفضل؟ قال: «العلمُ بالله»، فكرر ذلك ثلاث مرات وهو يجيبه في جميعها: «العلمُ بالله»، فقال الرجل: أسألك عن العمل فتجيبني عن العلم!! فقال صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: «ويحك، إن مع العلم ينفعك قليل العمل وكثيره، وإن مع الجهل لا ينفعك قليل العمل ولا كثيره»[2] .

ومما روي عن الرسول ﷺ في الترغيب في العلم بالله ومعرفته قوله ﷺ: «لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذي ليس بعده جهل، ولو علمتم الله حق علمه لزالت الجبال بدعائكم»[3] .

وروي عنه ﷺ أنه قال: «من أخذ دينه عن التفكر في آلاء الله تعالى، وعن التدبر لكتابه، والتفهم لسنتي، زالت الرواسي ولم يزل، ومن أخذ دينه عن أفواه الرجال وقلدهم فيه، ذهبت به الرجال من يمين إلى شمال، وكان من دين الله على أعظم زوال»[4] .

---

(١) رواه الإمام أبوطالب في أماليه عن عبدالله بن عباس، وأخرجه الربيع بن حبيب في مسنده عن جابر بن عبدالله .

(٢) رواه الإمام أبوطالب في أماليه، والحكيم الترمذي في الأصول، وأخرجه ابن عبدالبر في بيان العلم وفضله عن أنس ـ.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه، والديلمي في مسند الفردوس عن معاذ بن جبل .

(٤) رواه الإمام أبو طالب في أماليه (ح٢١٥).

موضوع علم التوحيد وثمرته

يبحث علم التوحيد في الموضوعات التالية:

١- إثبات وحدانية الله تعالى، والعلم بصفاته، وما يجب في حقه سبحانه، وما يجوز في حقه، وما لا يجوز.

٢- إثبات أن الله تعالى عدل غير جائر، وأنه تعالى صادق الوعد والوعيد، يجازي العباد على النقير والقطمير، ويثيبهم على القليل والكثير؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٣- إثبات مصير الخلق في الآخرة من بعث ونشور، وإثبات الحساب، والجنة والنار، وعذاب البرزخ ونعيمه، ونحو ذلك.

٤- الإيمان والتصديق بالأنبياء، وما أيدهم الله من المعجزات، وما أنزل عليهم من كتب، وما يجب في حقهم، وما يجب عليهم، وما يجب لهم، ونحو ذلك.

٥- الإيمان بالملائكة، ومعرفة صفاتهم، والأعمال المكلفين بها، ونحو ذلك.

٦- بيان ما يجب على المسلمين لإقامة الدين وإرساء قواعد الشرع، وذلك بتنصيب الإمام، والقيام بواجب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

وأما ثمرة البحث في تلك الموضوعات وغيرها مما يتناوله هذا العلم فتنحصر في ثلاث فوائد، هي[1]:

---

(١) عن كتاب الإيضاح شرح المصباح- لابن حابس "بتصرف" .

١- معرفة الله تعالى، وما يتعلق بالإيمان بالرسل، والكتب، والملائكة، وبالبعث، والنشور، والحساب، والعقاب، ونحو ذلك، بالأدلة القطعية النقلية والعقلية، وبذلك يكون الإنسان من دينه على يقين، ومن علمه وعمله على بصيرة.

٢- أن يأمن الإنسان من وسوسة الشيطان، ومن الانخداع بالشبهات الباطلة، أو التأثر بالأفكار الهدامة، مصداقاً للأثر المروي عن الرسول ÷ أنه قال: «من أخذ دينه عن التفكر في آلاء الله، والتدبر لكتابه، والتفهم لسنتي، زالت الرواسي ولم يزل، ومن أخذ دينه عن أفواه الرجال وقلدهم فيه، مالت به الرجال من يمين إلى شمال، وكان من دين الله على أعظم زوال»[(١)].

٣- أن يكون متمكِّناً من إرشاد الضالّين، وهداية الغاوين، والدعوة إلى دين الله عن علم ومعرفة، لا عن جهل وتقليد، فينال بذلك عند الله أعظم الأجر والثواب، مصداقاً لقول الرسول الأعظم ﷺ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أجُورِ مَنْ تَبِعَه، لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أجُورِهِمْ شَيئاً»[(٢)].

---

(١) رواه الإمام أبو طالب في أماليه (ح/ ٢١٥).

(٢) رواه مسلم وابن حبان وأبو داود عن أبي هريرة .

تقسيم التوحيد

ذهب بعض العلماء من المتأخرين إلى تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

- **توحيد ربوبية**: ويقصدون به الإيمان بأن الله تعالى هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، . . الخ.

- **وتوحيد ألوهية**: ويقصدون به إخلاص التوجه بالعبادة لله تعالى وحده.

- **وتوحيد الأسماء والصفات**: وهو إثبات ما وصف الله تعالى به نفسه ووصفه رسوله من الأسماء والصفات.

وقد ذهبوا إلى هذا التقسيم أخذاً بظاهر نصوص القرآن التي تثبت إقرار المشركين في عصر الجاهلية بوجود الله تعالى، وأنه تعالى هو خالق الأرض والسماء، ومنزل الغيث، ورازق المخلوقات، وأنه تعالى يكشف الكربات، وإليه المفزع عند النائبات، وغير ذلك من المعتقدات التي أشار إليها القرآن الكريم في كثير من الآيات .

١- وقد أطلقوا على هذا النوع من الاعتقاد (توحيد ربوبية)، ودليلهم في ذلك أن الله أخبر عن المشركين أنهم مقرُّون له بالربوبية، كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ**[1] **قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٩]، فاقتضى ذلك-

(١) بإثبات الألف على قراءة أبي عمرو برواية الدوري والسوسي.

على قولهم- أن التوحيد قسمان:

قسم يشترك فيه عُبّاد الوثنية وأصحاب الديانات السماوية مع أهل الإيمان من أهل الإسلام، وهو توحيد الربوبية.

وقسم آخر يختص به المؤمنون من أهل الإسلام، وهو توحيد الألوهية(١).

وتقسيم التوحيد على هذا النحو لا يصح، لأنه تقسيم مبتدع لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ولم يقل به قائل من السلف، من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أصحاب مدرسة السلف الذين يلتزم القائلون بهذا التقسيم باتباعهم واقتفاء أثرهم(٢)، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لايصح إطلاق لفظ الإيمان أو التوحيد على المشركين والكفار، لمجرد إقرارهم بوجود خالق للكون، رازق للعباد، ورب للعالم مسيطر عليه، مدبّر لشئونه، لأن إقرارهم بذلك إنما هو إقرار إلجاء وإلزام(٣)، ولا يعني ذلك بأي حال أنهم آمنوا بالله أواعتقدوا وجوده.

---

(١) وأما التقسيم الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات فقد أحدثه المتأخرون من أصحاب مدرسة السلف، وسموا عقيدة الأسماء والصفات بعقيدة أهل السنة والجماعة، وقد ذهبوا في ذلك إلى أن الوجه، والجنب، والعين، والسمع، والبصر، واليد، والنزول، والإتيان، والمجيء، والضحك، والتعجب، وما إلى ذلك من الصفات المذكورة في المتشابه من القرآن والسنة هي من صفات الله تعالى الثابتة!! ولذلك فهم يختصون بهذا النوع من التوحيد دون سائر فرق المسلمين ومذاهبهم .

(٢) إضافة إلى ذلك فإن هذا التقسيم كان ولا يزال سبباً في تكفير جماهير غفيرة من أهل الإيمان وإخراجهم من ملة الإسلام ونسبتهم إلى الشرك، وذلك مما لا يجوز إقرارهم عليه، لأن نسبة الموحدين من أهل الإيمان إلى الكفر واتهامهم بالشرك لمجرد الشبهة والظن لا يجوز، ففي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ : يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، فَإِنْ كانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ » .

(٣) وذلك أنهم لما لم يجدوا جواباً على سؤالهم عمن خلقهم، وخلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً، وأحيا الأرض بعد موتها . . الخ، فقد ألزمهم رب العزة تبارك وتعالى بهذا الإلزام، وهو أن كل ذلك من الله، ما دامت ألسنتهم قد خرصت عن أن تدّعي ذلك لشيء من آلهتهم، وأصنامهم، وأربابهم التي يقدسونها ويعبدونها من دون الله، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٩-١٠]..

وعلى فرض أن المشركين معتقدون بوجود الله وربوبيته فإن هذا الاعتقـاد لا يعني أنهم مؤمنـون بـالله الإيـمان الـذي يجعلنـا نصـفهم بـأنهم موحّـدون، لأن الاعتقاد بوجود إله خالق، رازق، . .الخ، هو إعتقاد فطري، لأن الفطـرة تحكـم قطعاً بوجود خالق للكون، ومسيطر على العالم، مدبّر لشئونه، وهو ما عـبّر عنـه الفلاسفة بالعلّة الأولى، أو العقل الأول، أو المحرك الأول، أو سبب الأسـباب، أو القـوة المسـيطرة، أو القـدرة الفـاطرة، أو نحـو ذلـك مـن المصـطلحات والتعبيرات، فهذا النوع من الاعتقاد لا يسمى إيماناً، ولا يقال عن أصحاب هذا الاعتقاد إنهم موحّدون، إذ لا يُتصوّر أن يكـون واجـب الوجـود الـذي يعتقـد المشركون وجوده ويظنون ربوبيته هو الله عز وجل الذي نؤمن بـه ونخلـص لـه العبادة، ونقر له بالخضوع والطاعة، والله تعالى أعلم .

أول الواجبات . . النظر والتفكر

إن من يتأمل يجد أن كل شيء في هذا الكون مسخر للإنسان ومخلوق لمنفعته، ولقد أكد القرآن هذه الحقيقة وبين ذلك أعظم بيان حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٢-٣٤]، ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النحل:١٠-١٨].

وأمام تلك النعم الجليلة التي لا تعد ولا تحصى مما أنعم به الخالق جل وعلا على بني الإنسان، كان من الواجب على الإنسان أن يشكر الله تعالى على تلك النعم الجليلة التي أنعم بها عليه، وذلك لأن شكر المنعم واجب شرعاً وعقلاً، فلو أن إنساناًما نام تحت شجرة في أرض فلاة، فما قام إلاّ وأمامه مائدة بها ألوان من الطعام اللذيد والشراب الهنيء، فهل يليق بمثل هذا الإنسان أن يتناول الطعام والشراب دون أن يعرف من صنع له الطعام؟ ومن أحضر له المائدة؟ ولماذا أعطاه إياها وقرّبها إليه دون أن يسأله ذلك ويطلبه منه؟!

إن العقل والمنطق يقضي أن من الواجب على مثل هذا الإنسان أن يعرف من الذي أحضر له تلك المائدة، وما الذي يريده منه ليشكره على صنيعه.

وذلك هو حال الإنسان الذي خلقه الله وأوجده من العدم، ثم أنعم عليه بصنوف النعم، حتى صار يتقلب في نعم الله تعالى ليلاً ونهاراً، فيأكل من رزقه، ويتنعم من خيراته، منذ كمال خلقه في بطن أمه إلى أن يخرج من الدنيا، فكان من أوجب الواجبات على الإنسان أن يعرف إلهه وخالقه، وأن يعبده ويطيعه، ويؤدي ما عليه نحوه ، شكراً له على نعمه وإحسانه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا

وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

فإذا لم يكن الإنسان على معرفة بخالقه، ولا مؤدٍّ لما له من حق الشكر والطاعة والعبادة، فإنه مغّفل، شأنه شأن البهائم التي لا تعقل، قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾**[محمد:١٢]، وقال تعالى: **﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾**[الفرقان:٤٤].

ومعرفة الله تعالى والعلم بصفاته هي أحد الأمور الغيبية التي لايمكن أن نتوصل إلى معرفتها إلا بأمرين: أولهما العقل ، وثانيهما الوحي، والعقل في الإنسان هو القوة المدركة التي يتمكّن الإنسان بواسطتها من إدراك الأشياء المحسوسة والمعقولة، وما من شك أن استعمال العقل في النظر والتفكر في المخلوقات هو الطريق الصحيح للعلم بالله تعالى ومعرفته والإيمان به، بدليل أن الله سبحانه وتعالى لم يدعُ عباده للإيمان به لمجرد سماعهم لآيات الوحي المنزلة على رسله وأنبيائه، وإنما ألزمهم ذلك بعد أن خاطب عقولهم، ووجه أنظارهم إلى بديع صنعه وعظيم آياته، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة:١٦٤] وقوله تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ**

بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٢-٤]، ونحو ذلك من الآيات.

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يُدرك بالحواس، ولا يمكن التوصل إلى الحكم بوجوده ومعرفة صفاته بواسطة الاستقراء والتجربة، وإنما بواسطة النظر والتفكر في المخلوقات، واستعمال العقل، لأن العلم والمعرفة لا تكون إلا بالعقل، ومتى عدم الإنسان العقل فإنه يستحيل أن تترتب في ذهنه معلومة صحيحة، أو يوصله الدليل إلى نتيجة سليمة.

إضافة إلى ذلك فإن العقل السليم إذا أصدر حكماً على شيءٍ ما من الأشياء المحسوسة والمعقولة فإن حكمه لا ينتقض، بخلاف حكم غيره مما يتوصل إليه بالحواس، فالواحد منا لو كان راكباً على سيارة مثلاً، فإنه يرى الجبال والبيوت ونحو ذلك وكأنها تمشي وتتحرك، وإذا نظر إلى طائرة محلقة في الهواء تسير بنفس اتجاه السيارة فإنه يراها وكأنها ثابتة لا تتحرك، في حين أن الحقيقة غير ذلك؛ لأن العقل يحكم أن الجبال والبيوت لا تسير ولا تتحرك، ويحكم بأن الطائرة لا يمكن أن تكون ثابتة في الهواء، لأنه لا يمكن لجسم ثقيل بحجم الطائرة أن يتسقر في الجو دون أن يسقط.

ومن ذلك نعرف أن توجيه الإنسان إلى الإيمان بالله عن طريق العقل إنما هـو لتثبيت الإيمان في النفس، وبالتالي يتحول العلم بالله إلى عقيدة ثابتة، لا يخالطها شك، ولا يلامسها وهم، وذلك بعكس ما لو كان الإيمان بالله عن طريق الوحي فقط -وهو ما يسمى عند علماء الأصول بدليل السمع- لأن دليل السمع هو دليل حسي، والدليل الحسي قد ينتفي بالشك والشبهة، ومما يدل على ذلك أن سحرة فرعون آمنوا بموسى لمجرد أنهم رأوا عصاة موسى ثعباناً حقيقياً يلتهم حبالهم وعصيهم، لأنهم أدركوا بعقولهم أنه لا يمكن أن يكون ذلك من فعل موسى وقدرته، في حين استطاع فرعون أن يقنع قومه وجنوده أن ثعبان موسى هو من جنس سحر السحرة ومكرهم، لأنهم كانوا ينظرون ذلك المشهد بعيونهم وحواسّهم، لا بفكرهم وعقولهم.

ومن هنا نجد أن الله سبحانه وتعالى شنَّع على أهل الكفر والعناد الذين عطلوا عقولهم، وأنزلهم منزلة الأنعام والبهائم، بل وجعلهم في درجة أضل منها وأسوأ، يقول الله تعالى: **﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾** [الفرقان:٤٤] وقوله تعالى: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾** [الأنفال:٢٢-٢٣]، وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾**

[الأعراف:١٧٩] وبين سبحانه في مواضع أخرى من القرآن أن تعطيل الفكـر وعـدم استعمال العقل سبب للخلود في النار، ونتيجة حتمية للضلال والخسران، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك:١٠-١١].

وكل تلك النصوص وغيرها تدل بما لا يدع مجالاً للشك أن استعمال العقـل والنظر والتفكر في المخلوقات فريضـة واجبـة عـلى جميـع المكلفـين، بمعنـى أن الإنسان مخاطب عقلاً بالإيمان بالله تعالى، والتمييز بين الحـق والباطـل، والهـدى والضلال، وإن لم يكن هناك نبي مرسل ولا كتاب منزل، بـدليل مـا أشـار إليـه القرآن الكريم من ذكر قصة أبي الأنبيـاء إبـراهيم- صـلوات الله وسـلامه عليـه وعلى آله- واهتدائه إلى معرفة خالقه قبـل أن ينـزل عليـه وحـي أو يرسـل إليـه رسول، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:٧٤-٧٩].

وقد ذكر أصحاب التواريخ والسير أن من أهل الفترة ممن عـاش قبـل بعثـة

النبي ﷺ مَن توصل بعقله إلى الإيمان بالله والإيمان بالبعث والنشور، ومن ذلك ما روي أن أعرابياً سُئل عن دينه فقال: «البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف الخبير؟!».

ومن ذلك ما روي أيضاً عن قس بن ساعدة الأيادي وكان موحّداً مؤمناً بالبعث والجزاء، وقد مات قبل الإسلام وأدركه النبي ﷺ قبل بعثته بسنوات، فعن عبد الله بن عباس قال: قدم وفد إياد على رسول الله ﷺ فقال: «أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟» قالوا: كلنا يعرفه. قال: «فما فعل»؟ قالوا: هلك. قال ﷺ: «ما أنساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول: اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، سحابٌ تمور، ونجوم تغور في فلك يدور، ويقسم قس قسماً إن لله لديناً هو أرضى من دينكم هذا، ثم قال: مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تُركوا فناموا؟!»(١).

---

(١) ومن أولئك الموحدين في زمن الفترة رجل آخر يقال له زيد بن عمرو بن نفيل، وهو الذي قال عنه الرسول ﷺ: «إنه يبعث أمة وحده»، وذلك أنه كان لا يوافق أهل الجاهلية في عبادتهم للأصنام ولم يوافق اليهود على يهوديتهم والنصارى على نصرانيتهم، ولما أخبره حبر من أحبار اليهود وراهب من رهبان النصارى أن إبراهيم كان حنيفاً يعبد الله وحده، قال: «اللهم إني أني على دين إبراهيم»، ويروى عنه أيضاً أنه لم يكن يأكل من لحوم المشركين حتى أنه لما قدم على مكة قبل بعثة الرسول (ﷺ) لقيه الرسول ﷺ فقدم إليه سفرة فيها لحم فظن أنها مما يذبح على الأنصاب فقال زيد للرسول ﷺ: «إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: «الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً وأنبت لها من الأرض الكلأ تذبحونها على غير اسم الله»، إنكاراً لذلك. (راجع سيرة ابن هشام وغيرها).

الله خالق كل شيء

لقد تاهت عقول البشر عن معرفة خالق المخلوقات وموجدها من العدم، حتى علمنا بواسطة العقل وعن طريق الرسل أن خالقها هو الله تعالى، فكثيرة هي الموجودات التي نراها على امتداد هذا الكون الفسيح والتي يعجز الإنسان أن يحصيها أو يحيط بها علماً .

والإنسان إذا تأمّل في هذه الموجودات يجدها مختلفة الصور والأشكال، والخصائص والصفات، فمنها ما هو سائل، ومنها ما هو صلب، ومنها ما هو غازي، ومنها ما هو متحرك، ومنها ما هو ساكن، ومنها ما هو حي، ومنها ما هو جماد، ومنها ما يبقى على حاله، ومنها ما يتغير ويتنقل من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، وتكاد تأخذ الإنسان الدهشة وهو يرى الأرض وما فيها من سهول، وجبال، وصحاري، ووديان، وأشجار، وبحار، وأنهار، ودواب، وأنعام، وطير، وحيوان، ويرى السماء وما فيها من نجوم تسير، وكواكب تتحرك، وشمس تضيء جنبات الأرض تشرق وتغيب في أوقات محددة، لا تتأخر عن موعدها دقيقة، ولا تتقدم دقيقة، وقمر يبدأ هلالاً، ثم يكبر شيئاً فشيئاً إلى أن يصير بدراً، ثم يصغر إلى أن يصير هلالاً كما كان، بنظام دقيق لا يتغير ولا يتبدل .

ثم يتأمل الإنسان في نفسه، وفي البشر من أبناء جنسه، كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وجعله معتدل القامة، حسن الشكل، جميل الصورة، ذا

عقل مفكر، ولسان ناطق، وعينين مبصرتين، وأذنين سامعتين، وأنف وشفتين، ويدين يستعين بهما على معاشه، وقدمين تنقلانه إلى حيث يريد، وكيف أنه خلق على هيئة يتمكن معها من الوقوف، والجلوس، والاضطجاع، والحركة، على النحو الذي يمكنه من أداء واجبه، وإنجاز أعماله، وتحقيق الهدف الذي خلق من أجله، ألا وهو عبادة الله تعالى والاستخلاف في الأرض وعمارتها .

ثم هو إلى جانب ذلك يتنقل من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، فأول أمره أنه كان نطفة في صلب أبيه، ثم يكون في رحم الأم علقة، ثم مضغة، إلى أن يصير بشراً سوياً، وهو في بطن أمه يتغذى بواسطة الحبل السري من غذاء أمه، حتى إذا خرج من بطن أمه أحدث الله له رزقاً في ثدي أمه لبناً خالصاً سائغاً، محتوياً على المعادن والغذاء اللازم لنموه، حتى إذا نما وقوي على أكل الطعام جعل الله له أسناناً وأضراساً، وأقدره على هضم الطعام وتناوله في سهولة ويسر، ثم ينمو شيئاً فشيئاً إلى أن يصير شاباً، ثم يبلغ أشده، ثم يرد إلى أرذل العمر، فيضعف بدنه، ويتغير حاله، ويصير بعد ذلك إلى الموت والفناء.

وإذا كان الإنسان قد خلق على هذا الشكل العجيب والصنع البديع، فإن الذي خلقه وأوجده قد خلق له كل ما يحتاج إليه ويقيم حياته، من ماء وهواء، وطعام وغذاء، وركب فيه الأجهزة التي يحتاج إليها لهضم الطعام، واستنشاق الهواء، وامتصاص المعادن والبروتينات الموجودة في الأطعمة والأشربة التي يتناولها، كما ركب فيه الأجهزة التي تخرج الفضلات التي لا يحتاجها الجسم ولا يستفيد منها.

إن الإنسان وهو يرى ذلك في نفسه، وفي العالم الذي حوله وفي هـذا الكـون الفسيح، وما فيه من عجائب المخلوقات، ليعلم علـم اليقـين أنها مـا وجـدت صدفة، ولا خلقت نفسها، وأنه لا بد وأن لها خالقاً خلقها، وموجـداً أوجـدها، وصانعاً صنعها، وهو الله تعالى.

وهذا هو القول الصحيح الذي لا شك فيـه ولا ارتيـاب، لدلالـة البراهـين والأدلة العقلية التي لا سبيل إلى ردها، والتي منها:

(١) **أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل مصنوع لا بد له من صانع**:

وهذه القضية يدركها الإنسان بعقله وفطرته، فالإنسان لا يكاد يشك في أن كل مـا يدركه ببصره، ويمسه بيده، صنَعه صانع، وأوجده موجد، بل لا يمكن أن نتصـور أن شيئاًما قد أوجد نفسه، أو وُجِد من غير موجد، دونما فاعل، مهما كان صـغيراً وتافهـاً، ابتداءً بالإبرة، وزرالقميص، وسنّة القلم، وانتهاءً بالطائرة، والسفينة، والمباني الضخمة، والعمارات الشاهقة ... وهلم جرا.

فهل يعقل أن يكـون هـذا العـالم بأحجـاره، وأشـجاره، وأثـماره، وأنهـاره، وسهوله، وجبالـه، ومـا فيـه مـن أحيـاء، وجمـادات، ودواب، وأنعـام، وطـير، وحيوان، وشمس، وقمر، ونجوم، وكواكب، وما إلى ذلك من الموجـودات قـد أوجده العدم، أو أحدثته الصدفة؟!.

إن مثل هذا القول لا يقول به عاقل، لأن وجود الأشياء من نفسها- منقطعة عن أسبابها- محـال عقـلاً، لأن العـدم لا يتصـور أن يكـون مصـدراً للوجـود،

وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

(٢) **أن الإنسان – وهو أعقل المخلوقات وأقدرها على الفعل والإيجاد- لم يخلق نفسه ولا خلق أحداً من أبناء جنسه**، بل ولا يستطيع أن يخلق حتى ذرة من ذرات جسمه، ولم يَدَّعِ أحد من البشر على مر العصور أنه خلق شيئاً ما من هذا العالم، ولا حتى ذرة من ذراته، ولو فرضنا جدلا أن الإنسان أو أحداً من هذه الموجودات أوأصلها- كمايقول الطبائعيون – قد أوجدت نفسها، فإنه يلزم من ذلك أن تكون موجودة حتى توجد نفسها، وهذا محال، لأنه تحصيل حاصل، وتحصيل الحاصل محال، فإذا ما جاء الأنبياء ليخبرونا أن الخالق هو الله تعالى، وجب علينا تصديق ما أخبرونا به، لأنهم لو كانوا كاذبين لادعوا ذلك لأنفسهم.

(٣) **أننا إذا تأملنا هذا العالم فسنجد أن هذا العالم وما فيه مخلوق بتقدير وإحكام، من أصغر ذرة من ذراته إلى أكبر مجرة من مجراته**، فالشمس مثلاً تقع على مسافة معينة من الأرض، بحيث لو قربت من الأرض قليلاً لاحترق كل ما فيها، ولو بعدت عن الأرض قليلاً لعم الجليد والصقيع سطح الكرة الأرضية، ولكان في ذلك هلاك الإنسان، والحيوان، والنبات، فهل وضع الشمس في مكانها الذي هي فيه، وتقدير حرارتها التي تتناسب مع الأشعة فوق البنفسجية الخطيرة على الأحياء التي تعيش على سطح الأرض، هل ذلك التقدير العجيب والصنع المتقن يمكن أن يكون قد وُجِدَ بمحض

الصدقة أو بفعل العوامل الطبيعية؟!! بالطبع لا. لأنه لا يمكن للصدفة أن توجد الفعل المتقن، والنظام البديع.

فلو أن إنساناً دخل داراً فوجد بها غرفة مهيأة للطعام، وأخرى للمنام، وأخرى للجلوس، ووجدها مرتبة مجهزة بما تحتاج إليه من أبواب، ونوافذ، وأثاث، ومفروشات، ونحو ذلك، ووجد في غرفة الطعام مائدة قد احتوت على أصناف الأطعمة، وألوان الأشربة، لجزم أن هذا الترتيب، وذلك التنظيم والإعداد لم يتم وحده، ولا وجد صدفة، وأن مثل هذا الإعداد النافع لما يحتاجه الدار ومن يسكنها لا بد وأنه قد نشأ عن تقدير وحكمة، وأن ذلك لم يتم إلا بفعل فاعل، وصنع صانع، ولا بد وأن هناك بنّاء بنى تلك الدار، ومهندساً أحكم تخطيطها، ونجاراً صنع أبوابها ونوافذها، وصانعاً صنع أثاثها ومفروشاتها... الخ.

وهكذا الأمر بالنسبة لهذا العالم، وما فيه من عجائب الخلق، وتقدير الصنع، فهي دالة على أن لها خالقاً خلقها، وموجداً أوجدها؛ لأنه لا يمكن القول أن الكون بما فيه من إبداع وتنظيم قد وُجد بطريق الصدفة والتلقائية، لأن الصدفة لا تُوجِد إلا الفوضى والعبث، تماماً كما لو أنا تركنا أثاث فصل من الفصول الدراسية بما فيه من ماسات وكراسي ليترتب بمحض الصدفة، وهل يصدق عاقل أن سطراً من سطور أي كتاب قد وجد بمحض الصدفة؟ فكيف بمن يدعي أن كتاباً مكوناً من أبواب وفصول، محتوياً على قضايا فكرية، ومسائل علمية، قد وجد بمحض الصدفة؟! فهل ينسب مثل ذلك المدّعي إلى زمرة

العقلاء؟ وهل يستحق صاحب هذه الدعوى أن يناقش؟ بل هل يحتاج ذلك إلى دليل؟، وصدق الله العظيم القائل: ﴿**قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [النمل:٥٩-٦٤].

فأي برهان أسطع من هذا البرهان؟ وأية حجة أبلغ من هذه الحجة؟! إن أي عقل لا يخضع لهذا البرهان ويذعن لهذه الحجة فإنه لا يمكن أن يخضع لبرهان أو يذعن لحجة قط ﴿**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾[النور:٤٠].

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولله در القائل:

فواعجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ؟
وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ!!

الله تعالى واحد لاشريك له

واجب الوجــود

بعد أن أوضحنا الدليل عـلى حـدوث العـالم، وأثبتنـا أن صـانع هـذا العـالم وموجده من العدم هو الله تعالى، بقي أن نقول:إن في حدوث العالم وإيجاده مـن العدم أكبر دليل على وجود الله تعالى، لأن العدم لا يؤثر شيئاً، وما مـن شـك أن الإنسان بفطرته السليمة يقر في قـرارة نفسـه بوجـود الله، ويـؤمن أن وراء هـذا الكون قوة عليا تحكمه، وتدبره، وتشرف عليه، فحين يفاجـأ الإنسـان بالسـؤال عن مصدر وجود هذا الكون ومدبره، فإنه لا يملك بفطرته إلا أن يقر بأنـه الله، قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ لَيَقُولُنَّ اللَّـهُ**﴾ [العنكبوت:٦١] .

وقد يتمادى الإنسان في الإنكار والجحود حتى إذا مـا ألمّ بـه خطـر، وأشرف على الهلاك، لم يكن أمامه بُدّ من أن يتوجه إلى خالقه ومالـك أمـره، قـال تعـالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَـفْنَا عَنْـهُ ضُرَّهُ مَـرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ**﴾ [يونس:١٢]، وقال عزّ من قائل: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾[الإسراء:٦٧].

ومن هنا ندرك أن وجـود الله تعـالى مـن البـداهات التـي يـدركها الإنسـان بفطرته، ويهتدي إليها بعقله، إذ أن وجود الله تعالى هـو الحقيقـة، ووجـود غـيره

مجاز، لأن كل ما هو موجود فهو إنما وجد بوجود الله، والله تعالى هو الذي منح هذا العالم وما فيه الوجود، فكل ما في الكون قائم في أصل وجوده وديمومته على فضل الله تعالى ورحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[يونس:٣١-٣٢]، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر:٤١]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[فاطر:١٥-١٦].

ولله در القائل:

تأمّل سطور الكائنات فإنها ... من الملإ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأمّلت خطَّها ... (ألا كل شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ)

دليل وحدانية الله تعالى

إن انتظام الخليقة وترابط أجزاء هذا العالم لأكبر دليل على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، إذ لو كان هناك إله غير الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – لكان هناك ثلاثة احتمالات باطلة، وهي:

– **الاحتمال الأول**: أن تكون إرادة الإله الآخر نافذة فيكون أحق بالألوهية،

ولو وُجِد لَعَلِمْنَا وجودَه، وعرفنا آثارَه ومخلوقاته، ولأتتنا رسله وكتبه، وهذا ما لا سبيل إلى إثباته لا بطريق العقل ولا بطريق النقل، وما لا سبيل إلى إثباته فهو باطل، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين في وصيته لولده الحسن(عليهما السلام): « وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وصِفَاتِهِ، وَلكِنَّهُ إِلهٌ وَاحدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلاَ يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الأْشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّة، وَآخِرٌ بَعْدَ الأْشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَة، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْب أَوْ بَصَر »(١).

- **الاحتمال الثاني**: أن يكون أدنى منه سبحانه، بمعنى أنه ليس له إرادة نافذة، وهذا لا يستحق أن يكون إلهاً، وإن قيل إنه مشارك لله في ألوهيته، كما ادعت النصارى ذلك للمسيح وروح القدس جبريل عليه السلام، فهو قول باطل، لأن الله سبحانه هو خالق المسيح وجبريل عليهما السلام، فهل احتاج الله لمن يشاركه في الألوهية حتى خلق له شريكاً أو شركاء؟! وهل يكون إلهاً أو شريكاً للإله من يأكل، ويشرب، ويحمل الفضلات، ويتعرض للأوبئة والأمراض، والأذى والموت، والجوع والعطش، ونحو ذلك؟! يقول الله تعالى: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى**

(١) نهج البلاغة، ج٣، مجموع رسائل الإمام علي ووصاياه، الرسالة رقم (٣١).

يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥]، ويقول جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧] .

وإذا كان عيسى ابن مريم دون مستوى المشاركة لله في ألوهيته، لأنه خلق من خلقه، وبشر من جنس الآدميين الموجودين على ظهر هذه البسيطة، فإن جبريل عليه السلام هو أيضاً دون مستوى مشاركة الله في الألوهية، لأن الملائكة خلق من خلق الله تعالى، وعباد من عبيده، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩] .

– **الاحتمال الثالث**: أن يكون مساوياً لله تعالى- تعالى الله عن ذلك- في صفات الكمال والألوهية، فيكون لكل واحد منهما إرادة مساوية لإرادة الآخر، وإذا صح هذا القول فإنه يصح من كل واحد منهما إيجاد ضد ما يصح إيجاده من الآخر، وهنا يحدث الفساد ويحصل الاضطراب في قوانين الكون ونواميسه، فما يريده هذا لا يريده ذاك، وما يفعله هذا يبطله ذاك، وقد قيل: السفينة بقائدين تغرق.. وصدق الله العظيم حيث قول: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٢-٤٣]، ويقول جل وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا

﴿فَسُبْحَانَ اللَّـهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢].

ومن هنا كان الإيمان بالله تعالى والإقرار له بالوحدانية هو أول الواجبات المفروضة على كل مكلف عاقل من الإنس والجن والملائكة، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّـهُ﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨].

والإقرار لله سبحانه وتعالى بالوحدانية يتضمن إخلاص العبادة لله تعالى وحده، لأنه سبحانه وتعالى مصدر كل النعم وموجدها، لم يشاركه في ذلك أحد من خلقه، والإيمان الجازم بأنه تعالى متفرد بصفات الكمال، وأنه لا ثاني له يشاركه في القدم والألوهية، ولا في الخلق والتدبير، وأنه تعالى واحد في ذاته، وواحد في أفعاله، وواحد في صفاته، لا شبيه له ولا نظير، وذلك هو التوحيد الخالص الذي أوصى الله تعالى به عباده، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّـهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلاَ لِلَّـهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٢-٣].

(ولا يحيطون به علماً)

عرفنا فيما سبق أننا مأمورون شرعاً وعقلاً بالنظر والتفكر في المخلوقات للوصول إلى معرفة الله تعالى والعلم به، لكن يجب أن نفهم أن معرفة الله تعالى لا تستلزم معرفة الذات الإلهية المقدسة، لأن الله عز وجل احتجب عن خلقه، وتعبدهم بمعرفته والعلم بصفاته، وقد شاء الله عز وجل أن يخلق الإنسان على الصورة والكيفية التي تحقق الغاية من وجوده في هذه الحياة، وكل ما أوتي الإنسان من عقل وحواس وإدراكات تتناسب وتلك الغاية وذلك الهدف.

وإذا كنا نعلم أن ذات الله المقدسة فوق أن يتصوّرها عقل، أو يتخيّلها فكر، أو يحيط بها علم، علمنا قطعاً أن معرفة الذات المقدسة وتصورها أمر خارج عن قدرة الإنسان وفوق طاقته، قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾[طه:١١٠] ، لذلك فإنه لا يجوز للإنسان أن يتفكر في ذات الله عز وجل، لأن قدرات الإنسان العقلية محدودة بإدراك الأجسام والأعراض، والله جل وعلا ليس بجسم ولا عرض حتى يتمكن العقل من إدراك الذات الإلهية، ومن هو الإنسان حتى يتطلع إلى مثل ذلك؟، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾[الفرقان:٢١].

وإذا كان الإنسان قد عجز عبر آلاف السنين عن معرفة ذاته، ووقف عاجزاً أمام اكتشاف حقيقة الروح التي فيه، ومعرفة ماهية العقل الذي يفكر به، فكيف يمكن أن يعرف حقيقة خالق الروح وواهب العقل؟! بل لقد عجز الإنسان عن إدراك حقيقة الوجود المادي الذي يعيش فيه، وعجز عن معرفة حقيقة كثير من المخلوقات التي يراها أو يسمع عنها.

فهل علم الإنسان شيئاً عن ذوات الملائكة أو ذوات الجن؟ وهل عرف الإنسان ماهية الكهرباء، والجاذبية، والأثير الذي ينقل لنا الأصوات والصور؟ فكيف يمكن للعقل الإنساني إذن أن يدرك حقيقة خالق الأكوان وموجدها؟ ومن أين للمخلوق من ماء وطين أن يعرف كنه رب العالمين، فسبحان من « لَا تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلَا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلَا تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ...لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمَسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ»[(١)]، سبحانك اللهم «أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً»[(٢)]، ﴿**سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

ومن هنا فإن من الواجب على الإنسان أن يفكر في المخلوقات، وأن يستعمل عقله للوصول إلى معرفة الله تعالى والعلم بصفاته، لا أن يفكر في ذات الله لمعرفة كنهه وكيفيته، وشتان ما بين التفكر في مخلوقات الله، والتفكر في ذاته، فإنه «من

---

(١) من كلام الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (٨٥)، (١٨٦).

(٢) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم(٩١).

تفكر في مخلوقات الله وحّد ومن تفكر في ذات الله ألحد»، إلاّ أنه من الضروري أن يتعرف الإنسان على صفات الله تعالى وأسمائه، وإنه من الواجب علينا الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه محمد عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التسليم، وما يجب أن نعرفه عن صفات الله تعالى هو أنها صفات متعلقة بالذات الإلهية غير منفصلة عن الذات الإلهية ولا زائدة عنها.

وسنتعرف فيما يأتي على بعض صفات الله تعالى ومعانيها ليتحقق بذلك الهدف الذي نهدف إليه من خلال دراستنا لعلم التوحيد ألا وهو معرفة الله تعالى والعلم به.

صفات الكمال

١- (القادر)

سبق وأن أشرنا إلى أن الله عز وجل خلق الكون بما فيه، وأوجد الموجودات على صور مختلفة، وأشكال متعددة في الخصائص والصفات، وهي مع ذلك مخلوقة بتقدير محكم، وصنع متقن، ونظام بديع، وفي ذلك دليل على أن الله تعالى قادر، وأن قدرة الله تعالى مطلقة ليس لها حدود، بمعنى أن الله تعالى قادر على جميع أجناس المقدورات، لا يعجزه فعل شيء، ولا إيجاده من العدم، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ**

كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤]. ويقول تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[يس:٨٢].

ولقد تكرر في القرآن الكريم ذكر مظاهر قدرة الله تعالى في الكون والإنسان في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**[يس:٣٣-٤٠]. ونحو ذلك من الآيات.

ولا شك أن مظاهر القدرة الإلهية في الكون والإنسان شاهدة على قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة، وإذا كانت صفة القدرة مشتركة في بعض الوجوه بين الله وبين خلقه، فإنها بالنسبة إلى الله تعالى حقيقة، وبالنسبة لغيره مجاز، لأن الله تعالى هو واهب القدرة لكل ما هو قادر، فليس هناك في الكون ما هو قادر بنفسه، وإنما بما وهبه الله تعالى من القدرة المحدودة التي لا تتجاوز ما أقدره الله عليه، قال تعالى: **﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾**[فصلت:١٥].

لذلك كان من لوازم الإيمان بقدرة الله تعالى، أن يمتلئ قلب المؤمن بخشية الله تعالى والخوف منه، ومن الحكمة قولهم: (إذا قدرت على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك).

وأيضاً فإن من لوازم الإيمان بقدرة الله تعالى واعتقاد أن كل شيء تحت أمره وتصرفه أن يمضي المؤمن في طريق الحق لا يخشى شيئاً إلا الله تعالى، على نحو ما أخبر به رب العزة تبارك وتعالى عن موقف الرسول ﷺ ومن خرج معه من المؤمنين الصادقين من صحابته في بعض غزواته حيث يقول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٥].

ويلزم كذلك أن لا يستعين المؤمن إلا بالله، وأن لا يتوكل إلا عليه، ولا يرجو الخير إلا منه، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٨]. وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في وصيته لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بقوله:«إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللَّهِ، وَاعْلَمْ : أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ

يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ لَـكَ، وَإِن اجتَمَعُـوا عَـلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحفُ»[1].

٢-(العالِم)

خلق الله الخلق على أتقن نظام، وأبدع تقدير، من أصغر جزء مـن ذراتـه، إلى الأجزاء الهائلة من كواكبه ومجراته، وإننا لو نظرنا إلى أصغر المخلوقات لوجـدنا خلقها محكماً غاية الإحكام، ومُتقَناً أعظم الإتقان، على حد يعجز جميع الخلق عن فعل مثله أو بعضه.

وفي ذلك وغيره دلالة واضحة على سعة علم الله تعالى، وإحاطته بكل دقائق الكون وأسراره، لا فرق في ذلـك بـين المجـرات الهائلـة، وبـين ذرات الرمـال، وقطرات الأمطار والبحار، فعلمه تعالى محيط بجميع المخلوقات ما كان منها وما سيكون، فهو تعالى يعلم ما في البحار من قطرات، وما في السنابل مـن حبـوب، وما في الأشجار من أوراق، وما في الأغصان من ثمار، وما في بطون الأرحام من أجنّة، وما في رؤوس البشر وجلود الـدواب والأنعـام مـن شـعر، قـال تعـالى: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِـنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُـمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْـبٍ وَلاَ يَـابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ﴾**[الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: **﴿اللَّـهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ**

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عبدالله بن عباس .

مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[الرعد:٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[آل عمران:٥-٦].

والآيات القرآنية في مثل ذلك كثيرة دالة على سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل ذرة من ذرات الكون، وأنه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى.... لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ(١)، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ(٢).... قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»(٣).

وما من شك أن علم الله سبحانه وتعالى مطلق، وأن علمه هو منتهى العلم، و من علم الله تعالى المطلق علمه تعالى بدقائق أفعال العباد، وخفايا أسرارهم، وإحصائه سبحانه لكل صغيرة وكبيرة من أفعالهم، وأقوالهم، ونياتهم، يقول الله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي**

---

(١) **لَا يَعْزُبُ**: لايغيب، **سَوَافِي الرِّيحِ**: ماحملته الريح .

(٢) **الْأَحْدَاقِ**: العيون.

(٣) من كلام الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (١٦٣)، (١٧٨)، (٨٦).

لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[سبأ:٣-٤]، يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[الحديد:١-٦]، ويقول جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وهكذا نجد آيات القرآن الكريم تؤكد عظمة الله تعالى، وقدرته، وسعة علمه، وإنها لتملأ قلب المؤمن بخشية الله تعالى والخوف منه، ويحيط المؤمن شعور القرب من الله تعالى، ومراقبته في الأقوال والأفعال، والخواطر والنيات، في كل الأحوال والظروف، وفي جميع الأماكن والأزمان، سواءً كان في المسجد أو في البيت، في السوق أو في العمل، وسواءً كان في ليل أو في نهار، في سرٍّ أو في علن، وحين يكون المؤمن كذلك لا يمكن أن يقترب من معصية، أو يقترف خطيئة، ما دام يعلم أن الله تعالى عالمٌ به ومطلعٌ عليه، وبذلك يرتقي المؤمن بإيمانه إلى مرتبة الإحسان التي بيّنها رسول الله ﷺ في حديث جبريل حين سأله عن الإحسان فقال ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة، ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر.

وإذا كان الإنسان على هذا المستوى من مراقبة الله تعالى والخوف منه، فإنه يكون في معيّة الله تعالى، تحوطه عناية الله، ويرعاه برعايته، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن عمرت قلوبهم التقوى، ووقر في قلوبهم الإيمان، ونالوا بالمراقبة والخشية درجة الإحسان، إنه كريم جواد منّان.

٣-(الحي القديم)

الله سبحانه وتعالى هو الحي الدائم الباقي الذي لا يجوز عليه فناء ولا عدم، وهو تعالى الموجود الذي لا أول لوجوده .

أما كونه سبحانه وتعالى حي فلأنه جل وعلا هو خالق المخلوقات، وموجد الموجودات، فيلزم من ذلك أنه تعالى حي، لأن الجماد لا علم له ولا قدرة، والميّت لا فعل له ولا تأثير.

وأما كونه تعالى باقياً لا يجوز عليه فناء ولا عدم، فذلك لأن العدم والفناء من صفات المُحدَثات، والله سبحانه وتعالى ليس محدثاً، ولا تجري عليه صفات المُحدَثات، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[الفرقان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّـهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، فقد أثبت سبحانه وتعالى لنفسه الحياة الأزلية التي لا بداية لها ولا نهاية، لأنه تعالى حي على الحقيقة، وغيره حي مجازاً، فكل حي اكتسب الحياة منه تعالى، ولم يكتسب سبحانه الحياة من أحد، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

* **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[الصمد:١-٤]، ثم إنه سبحانه وتعالى أثبت لنفسه القيّومية التي تؤكد قيّوميّته على كل شيء في هذا الوجود بكلياته وجزئياته، في كل وقت، منذ اللحظة الأولى لوجوده إلى ما شاء الله، وقد نفى سبحانه عن نفسه أن يعتريه في لحظة من اللحظات غفلة بسيطة، أو نوم مستغرق، قال تعالى: ﴿**اللَّـهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾[البقرة:٢٥٥]، فكيف يمكن أن يقال إنه يجوز على الله موت أو فناء؟ قال تعالى: ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[القصص: ٨٨]، وقال عز من قائل: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**﴾[الرحمن:٢٦-٢٧].

وأما الدليل على أنه سبحانه وتعالى قديم لا أول لوجود، فهو أنه لمّا كان سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا العالم وأوجده من العدم، فقد دل ذلك على أن وجود الله سبحانه وتعالى سابق لوجود العالم، ولا يمكن القول أنه سبق وجود الله شيء، إذ لو كان لوجوده أول لكان مُحدَثاً، ولو كان مُحدَثاً لاحتاج إلى مُحدِث، ولاحتاج المُحْدِث الثاني إلى مُحدِث... وهكذا، وهذا لا يصح، لأن ما أدى إلى التسلسل فهو باطل، وإن من المعلوم أن الأعداد تبدأ بالرقم واحد، وما قبل الواحد هو الصفر الذي يمثل العدم،.

ولو لم يخبرنا رب العزة تبارك وتعالى عن أبينا آدم لكان من الضروري أن نهتدي بعقولنا إلى وجوده ووجود أمنا حواء، لأنه لا يمكن أن نتصور أن الجنس البشري توالد مجموعة من مجموعة منذ القدم، بل تقتضي الضرورة أن يكون هناك في الزمان البعيد رجل وامرأة تناسل منهما هذه الأعداد الهائلة من الرجال

والنساء، ولولا وجود الرجل الأول لما كان لهذه المليارات من البشر وجود على الإطلاق، وكذلك سائر المخلوقات في هذه العالم والكون بأسره، فإنه لولا الذات الإلهية الموجودة منذ القدم لما كان لها وجود أصلاً، « فَتَبَارَكَ اللَّـهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ[(١)]، الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِيَ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِيَ... [الذِيْ] لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ[(٢)] انْقِضَاءٌ، هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ »[(٣)].

٤- (الغني)

وصف الله تعالى نفسه في كثير من آيات القرآن الكريم بأنه تعالى غني كل الغنى عن كل ما في الوجود، قال تعالى: ﴿**لِلَّـهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[لقمان:٢٦]، فهو تعالى مالك الملك، وكل ما في الكون بيده وتحت مشيئته، قال تعالى: ﴿**قُلْ اللَّـهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[آل عمران:٢٦].

وما من شك أن مالك الملك، وخالق الخلق، هو أغنى الأغنياء، لا بما يملك من هذا العالم بسماواته وأرضه، وما حوى من معادن نفيسة وعناصر غالية، ولا

---

(١)حَدْسُ الْفِطَنِ: ظنها وتخمينها .

(٢)أَزَلِيَّتِهِ: بقائه ودوامه.

(٣) من كلام الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، نهج البلاغة، ج١،الخطبة رقم(٩٤)، (١٦٣).

لأنه يملك عدداً لا يحصى من الجن والإنس والملائكة، ولكنه غني باستغنائه عن جميع خلقه، إذ كل المخلوقات جليلها ودقيقها تقوم بالله عز وجل، أما الله سبحانه وتعالى فقائم بنفسه، مستغنٍ بذاته عن كل ما سواه.

فهو تعالى غني عن الشريك والزوجة والولد، قال تعالى: ﴿**قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [يونس:٦٨]، وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام:١٠١].

فقد أشارت هذه الآيات إلى أنه تعالى ليس له ولد، لأنه يستلزم الانفصال عنه، والانفصال لا يكون إلا من الأجسام، والله تعالى ليس جسماً، ثم إن الولد لا يأتي إلا من الزوجة، وهو تعالى غني أن يكون له زوجة أو ولد، لأن التزاوج هو من شأن المخلوقات التي تتكاثر وتتوالد لحفظ نوعها، لما يعتريها من الموت والفناء، وهو تعالى غني عن كل ذلك ومنزه عنه، إذ هو جل وعلا حي دائم لايزول ولا يموت .

وكما أنه تعالى غني عن الزوجة والولد فهو سبحانه غني عن أن يكون له شريك، لأنه سبحانه قيّوم بنفسه، وكيل على كل شيء من خلقه، يتولّى حفظه وتدبير أمره.

والله تعالى غني عن الحيِّز والمكان، فالكون كله وما فيه صفر إلى جانب الذات الإلهية، لأنه سبحانه هو الذي خلقه وأوجده، ولو شاء الله أن يفني هذا الكون بما فيه، وما حوله، وما فوقه، وما دونه، لما نقص ذلك من غناه المطلق شيئاً .

والله جل وعلا غني عن جميع خلقه، لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، ولا يحتاج إليهم في شيء من أمره وتدبيره، بل هم جميعاً محتاجون إليه، مفتقرون إلى رعايته وحفظه، وإلى فضل جوده، وسعة رحمته، يقول الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ [فاطر:١٥-١٧]، ويقول تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾[الأنعام:١٣٣]، وقال جل وعلا: ﴿**وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[إبراهيم: ٨]، وفي الحديث القدسي عن النبي ﷺ عن الله عز وجل، يقول الله تعالى: « يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا

عِبَادِي؛ لَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِـرَكُمْ، وَإِنْسَـكُمْ وَجِـنَّكُمْ، قَـامُوا فِي صَـعِيدٍ وَاحِـدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْـدِي، إِلاَّ كَـمَا يَـنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ »[1].

ومن كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك قوله: « لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ[2]، وَلَا شَرِيـكٍ مُكَـاثِرٍ، وَلَا ضِـدٍّ مُنَافِرٍ، وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ »[3]، وقوله في موضع آخر: « لَمْ يُكَوِّنْهَا[4] لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلَا لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِـدٍّ مُكَـاثِرٍ، وَلَا لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلَا لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا، ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لَا يُمِلُّـهُ طُـولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِـأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَـا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ[5] إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ»[6].

---

(١) رواه مسلم وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي وابن حبان عن أبي ذر.

(٢) نِدٍّ: نظير (عدو مخالف). مُثَاوِر: معادي محارب.

(٣) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (٦٥).

(٤) أي السموات والأرض.

(٥) ضَعَةٍ: نقص وهوان.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة رقم (١٨٦).

(ليس كمثله شيء..)

نفي التجسيم

تنزيه الله سبحانه وتعالى عن المادية، وعن مشابهة المخلوقات، من أهم القواعد التي تبنى عليها العقيدة الإسلامية الصحيحة، ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، وما حكاه الله سبحانه في التعريف بنفسه في سورة الصمد، حيث يقول تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ*اللَّـهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٥]

وما وصف به نفسه في آية الكرسي بقوله: ﴿ اللَّـهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالآيات المذكورة تقرر أن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص، وعن مشابهة المخلوقات.

أما سورة الإخلاص فقد اشتملت على خمس جمل قصيرة كانت كافية لتعريف الناس بحقيقة إله الكون، وخالق الوجود، وربهم المعبود، فالسورة تقرر:

- أن الله تعالى له الوحدانية المطلقة، فهو واحد لا يتعدد، وواحد لا يتألف من آحاد، وواحد لا ينقسم ولا يتبعض، وواحد لا ثاني معه، وواحد لا نظير له ولا شبيه، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في صفاته.

- وأنه تعالى هو السيد الغني الذي يقصده الخلق، ويلجأون إليه في حوائجهم وأمورهم، وكل ما عداه محتاج إليه مفتقر إلى رحمته وسعة فضله.

- وأنه تعالى ليس له ولد، فهو لا يتناسل ولا ينفصل عن ذاته شيء، وهو تعالى لم ينفصل عن شيء، تعالى أن يكون له أب أو أم، إذ ليس قبله شيء، وهو القديم الذي لا أول لوجوده.

- وأنه تعالى لا شبيه له من خلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تعالى الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقات ومماثلتها.

وأما آية الكرسي فقد وصفت الخالق جل وعلا أنه واحد في ألوهيته لا يعبد معه غيره، وأنه الحي القيوم الذي قامت به السماوات والأرض، وأنه تعالى مقدس عن مماثلة غيره من الأحياء، فلا يأخذه نوم، ولا تدركه غفلة، ولا يناله فتور، وأنه سبحانه صاحب العلو والعظمة الذي لا يدانيه أحد في علوه، ولا يبلغ أحد مقدار عظمته.

ومن ذلك نعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى ليس له مثيل من المخلوقات يشبهه، ولا هو يشبه المخلوقات، وأنه متعالٍ بذاته، منزه عن أن يوصف بشيء من صفات المحدثات، وأنه لا يمكن أن تحيط العقول بكنهه، ولا تدرك الحواس كيفيته، ولا تقع على شيء من صفته، وأنه مهما تصور الذهن شيئاً فالله تعالى بخلافه، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١]، فهو تعالى منزه عن أن يكون جسماً، أو يشبه الأجسام في صورة من

صورها، أو صفة من صفاتها، ومما يدل على ذلك ما يلي:

١- أن الأجسام لا تكون إلا مُحدثة، والله سبحانه وتعالى منزه عن الحدوث، لأنه تعالى قديم والقديم لا يكون مُحدَثاً، وإلا كان المُحْدَث أقدم منه وهذا محال.

٢- أن الله تعالى هو خالق الأجسام وموجدها من العدم، وخالق الأجسام لا يمكن أن يكون جسماً، فالإنسان وأي جسم من الأجسام لا يستطيع- مهما أوتي من علم - أن يخلق جسماً ويوجده من العدم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾[الحج:٧٣]، وفي ذلك دليل على أن الله سبحانه وتعالى ليس جسماً، وأنه لا يشبه الأجسام، لأنه لو كان كذلك لما صح منه خلق الأجسام وإيجادها من العدم.

٣- أن الأجسام مركّبة من أجزاء، والمركب يحتاج إلى أجزائه، ويحتاج كذلك إلى الحَيِّز والمحل، والله تعالى غني لا يحتاج إلى شيء من ذلك، إذ لو كان محتاجاً إلى شيء لكان محدثاً، لأن الحاجة إنما هي من صفات المحدثات، وهو تعالى غني، وكل المحدَثات محتاجة إليه، لأنه خالقها وموجدها من العدم.

نفي التشبيه

يتفرع عن نفي الجسميّة عن الله تعالى وجوب تنزيه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقات ومماثلتها في جملة من الأمور والتي يمكن الإشارة إليها في النقاط التالية:

أولاً: تنزيه الله سبحانه عن الحلول والمكان:

بمعنى أن الله تعالى منزه عن أن يحويه مكان، أو يتحيز في جهة، ويدل على ذلك ما يلي:

١- أن الحلول والتحيز إنما هو من لوازم الأجسام والمحدثات، والله تعالى منزه عن ذلك، لأنه تعالى ليس جسماً، ولا يشبه الأجسام، ولو كانت الذات الإلهية يحويها مكان، أو متحيزة إلى جهة- تعالى الله عن ذلك- لكان الله تعالى قد شابه الأجسام والمحدثات في صفة من صفاتها، وهي الحلول والتحيّز، وهذا محال.

٢- أنه تعالى قد وصف نفسه بالغنى المطلق، فعلمنا من ذلك أنه سبحانه غني بذاته عما سواه، ولا شك بأن القول بحلول الذات الإلهية المقدسة في مكان، وتحيّزها إلى جهة، يقتضي احتياج الباري جل وعلا للمكان والجهة، وهذا لا يصح، لأن المكان هو من خلق الله عز وجل، وهو تعالى غير محتاج إلى شيء من خلقه.

٣- أن الله سبحانه وتعالى قديم، بمعنى أنه سبحانه هو الموجود الذي لا أول لوجوده، إذ كان الله عز وجل ولا شيء سواه، فأين كان الله قبل خلق الموجودات، وقبل إيجاد العرش والكرسي إذا قلنا إنهما مكان وجود الله- تعالى الله عن ذلك- ؟ ولا شك أن القول بقدم العالم قول غير صحيح، لأن القول بذلك يعني القول بتعدد القدماء، وتعدد القدماء يعني تعدد الآلهة.

٤- أن القول بأن الله سبحانه وتعالى حالٌّ في مكان، متحيز إلى جهة، يعني إمكان القول بأنه سبحانه موجود في مكان وغير موجود في مكان آخر-

تعالى الله عن ذلك- وهذا ما لا يصح القول به، لمخالفته لنصوص القرآن الكريم الدالة على كونه سبحانه وتعالى موجود في كل مكان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف:٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[الحديد:٤]، ونحو ذلك من الآيات.

٥- أن القول بأن الله تعالى مستوٍ على العرش بمعنى أنه مستقرٍ عليه جالس فوقه- تعالى الله عن ذلك- يعني القول بأن في هذا الكون ما هو أكبر من الله تعالى، وهذا ما لا يصح القول به، لأننا نعتقد أنه لا يوجد في هذا الكون ما هو أكبر من الله تعالى وأعظم، ولا يعني ذلك القول بأن الله تعالى جسم أو أن لله عز وجل حجم- تعالى الله عن ذلك- إذا قارناه بالمخلوقات، وإنما يعني ذلك أنه لا يمكن لأي جسم في هذا الكون مهما عظم أن يحوي الذات الإلهية أو يحملها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَا يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ، وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ، لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ[1]، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ»[2]، ويقول عليه السلام: « لَمْ يَحْلُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ هُوَ كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ[3] عَنْهَا فَيُقَالَ هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ[4]»[5]، ويقول: « وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ؟»

---

(١)وَالِجٍ: داخل فيها ممازج لها.

(٢) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (١٨٦).

(٣)يَنْأَ: يبتعد.

(٤)بَائِنٌ: مفارق لها بعيد عنها .

(٥) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (٦٥)..

فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ.»[1]، ويقول: « مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: « كَيْفَ؟» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: « أَيْنَ؟» فَقَدْ حَيَّزَهُ »[2].

ثانياً: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن صفات المحدثات والأجسام:

ويعني ذلك أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الحركة والسكون، وعن التغير والانتقال، وما إلى ذلك من صفات المحدثات والأجسام، كالذهاب والمجئ، أو الصعود والنزول، أو نحو ذلك.

وكما أن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات الحوادث والأجسام، فإنه سبحانه منزه كذلك عن صفات النقص التي هي من صفات الإنسان وطبائع الأجسام؛ كالمكر، والخديعة، والكيد، والسخرية، والوهم، والنسيان، والضحك، والتعجب، والعجز، والتعب، والغفلة، والملل، وما إلى ذلك من صفات النقص، فإنه لا يجوز وصف الله سبحانه وتعالى بتلك الصفات وأمثالها، لأنه سبحانه وتعالى مختص بصفات الكمال منزه عن مشابهة المخلوقات، ومماثلة الأجسام والمُحدثات، في الطبائع والصفات، قال تعالى: ﴿**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾[البقرة:٢٥٥]،، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ**﴾[ق:٣٨]، وقال

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم (١).

(٢) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم(١٥٢).

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّـهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة:٧٤]، ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[المؤمنون:١٧]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم:٦٤]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على تنزيه الخالق جل وعلا عن صفات النقص وطبائع الأجسام.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك قوله: «أَنْشَأَ الخَلْقَ إنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلاَ رَوِيَّة أَجَالَهَا[1]، وَلاَ تَجْرِبَة اسْتَفَادَهَا، وَلاَ حَرَكَة أَحْدَثَهَا، وَلاَ هَمَامَةِ نَفْس[2] اضطَرَبَ فِيهَا»[3]، وقوله: «لَمْ تَلْحَقْهُ فِي ذلِكَ كُلْفَةٌ، وَلاَ اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلاَ اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الأمُورِ وَتَدَابِيرِ الْمخلُوقِينَ مَلاَلَةٌ وَلاَ فَتْرَةٌ»[4]، وقوله: «لاَ يُدْرَكُ بِوَهْم، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْم، وَلاَ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نَائِلٌ[5]، وَلاَ يَنْظُرُ بِعَيْن، وَلاَ يُحَدُّ بِأَيْن، وَلاَ يُوصَفُ بِالأزْوَاجِ[6]، وَلاَ يَخْلُقُ بِعِلاَج[7]، وَلاَ يُدْركُ بِالْحَوَاسِّ، وَلاَ يُقَاسُ بِالنَّاسِ»[8]

وأما ما ورد في كتاب الله تعالى، أو في الصحيح من السنة النبوية المطهرة، مما

(١)رَوِيَّة أَجَالَهَا: فكرة أدارها وترددت في داخله .

(٢)هَمَامَةِ نَفْس: عزم واهتمام .

(٣) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (١). ..

(٤) نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (١).

(٥)نَائِلٌ: عطاء

(٦)الأزْوَاجِ: الأمثال والأنداد

(٧)لاَ يَخْلُقُ بِعِلاَج: لايحتاج في صنعه إلى مايحتاج إليه الخلق من معالجة ومزاولة.

(٨)نهج البلاغة، ج١، الخطبة رقم (١٨٢).

ظاهره وصف الله سبحانه بصفة من صفات المخلوقات، ونسبة شيء من ذلك إليه، فهو لا يخلو من أحد أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من باب المشاكلة وهي صورة من الصور البلاغية المعروفة في لغة العرب ومن ذلك قول الشاعر:

قالوا اخترع شيئاً نجد لك طبخَهُ قلت اطبخوا لي جُبَّةً وقميصا

فقد ذكر الشاعر أنهم لما طلبوا منه أن يذكر لهم ما يريد طبخه من الطعام، أخبرهم أنه لا حاجة له إلى الطعام، وطلب منهم أن يعطوه جبة وقميصاً يحتمي بهما من البرد، ولكنه عبّر عن حاجته إليهما بقوله: (قلت اطبخوا لي جُبَّةً وقميصاً) ومعلوم أن الجبة والقميص لا يطبخان، وإنما يصنعان، غير أنه أورد ذلك من قبيل المشاكلة، وقد تكرر هذا النوع من التعبير في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ [النساء:١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾[التوبة:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ**﴾[الأنفال:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا**﴾[الطارق:١٥-١٦]، ونحو ذلك من الآيات.

الثاني: أنها واردة على هذا النحو من باب المجازاة، وهو مقابلة الشيء بمثله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾[الشورى:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[البقرة:١٩٤]، ومعلوم أن جزاء السيئة لا يعدّ سيئة، ورد الاعتداء لا يعتبر اعتداء، بل هو العدل بعينه، وعلى ذلك فإن

الآيات المذكورة ونحوها لا يصح أن يكون المراد من الآية ظاهرها، فيوصف الله تعالى بالخداع، والمكر، والنسيان، والسخرية، وما إلى ذلك من صفات النقص – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً–، وإنما هو من قبيل المجازاة على الشيء بمثله. فقوله تعالى مثلاً: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، يدل ظاهر الآية على أنه يجوز أن يكون الله تعالى مخدوعاً وأن يكون خادعاً– تعالى الله عن ذلك– فالله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يكون خادعاً ولا مخدوعاً، لأن الانخداع لا يكون إلا لجهل أو غفلة، والله منزه عن الجهل والغفلة وإنما لما ظن المنافقون أنهم يخادعون الله بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، أخبر الله عنهم ووصفهم بما هو في اعتقادهم، ثم ذكر تعالى أنه مجازيهم بنفس فعلهم، وذلك بأن تجري عليهم أحكام الإسلام حتى يظنوا أنفسهم من أهله، وهم يوم القيامة مخلدون في النار مع سائر العصاة والكفار، وهو ما أشار إليه رب العزة تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[البقرة:٨-١٠] وعلى هذا النحو يفسر الاستهزاء والسخرية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٧٩]، ونحو ذلك.

ثالثاً: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الجوارح والأعضاء:

خلق الله تعالى الخلق بقدرة فائقة، وحكمة بالغة، وذلك أنه سبحانه خلق سائر المخلوقات على نحو يتناسب مع الهدف والغاية التي خلقت من أجلها، وأوجد لهذه المخلوقات من الأعضاء والجوارح والأجزاء ما لا تستغني عنه، لاستمرار بقائها، وحصول منافعها، تماماً كما هو حال السيارة مثلاً- أو أي آلة من الآلات- فإنها لو فقدت بعض أجزائها فإنها تتعطل بسبب ذلك، ويتعذر أن تؤدي المهمة المطلوبة منها، وقس على ذلك الإنسان وسائر المخلوقات، فإنها لا تؤدي غرضها، ولا تحقق هدفها، ولا يمكن أن تكون ذات فائدة، إلا مع ترابط أجزائها، وتكامل أعضائها، مما يعني أن تلك الأجسام محتاجة لأجزائها، غير مستغنية عن عضو من أعضائها.

وإذا كنا نعلم قطعاً أن الله سبحانه وتعالى لا يشبه خلقه في صفة من الصفات، لضرورة الاختلاف بين الصانع والمصنوع، والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق، علمنا علم اليقين أنه سبحانه وتعالى واحد لا يتعدّد، ولا يتبعّض، ولا يتكون من أجزاء، ولا يوصف بالجوارح والأعضاء، بدليل ما وصف الله تعالى به نفسه بقوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١]، وقوله: ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[الصمد:٤]، وبالتالي فإنه لا يجوز أن يوصف الباري جل وعلا بأنه جسم، أو أن له أعضاء وجوارح، ولا يصح أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى جسم لا كالأجسام، أو يوصف بأن له أعضاء تليق بجلاله؛ لأن هذه العبارات وأمثالها تتضمن التشبيه والتجسيم من عدة وجوه منها:

١- أن الأعضاء والجوارح لا تكون إلا في الأجسام، ونسبة الأعضاء والجوارح إلى الله تعالى يعني القول بأن الذات الإلهية مركبة من هذه الأعضاء، وأنه سبحانه محتاج إليها باعتبار أنها أداة الفعل- تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

٢- أن عبارة (الله جسم لا كالأجسام) جملة خبرية فيها إثبات ونفي يحصل منه التناقض، لأن لفظ الجسم يطلق على ما يشغل حيزاً من الفراغ، أو ما له الأبعاد الثلاثة وهي: الطول، والعرض، والعمق، فما كان على هذه الصورة فهو جسم، وما لم يكن على هذه الصورة فليس بجسم، ولا توسط بينهما، بحيث يمكن أن يوصف شيء أنه جسم وليس بجسم في نفس الوقت، كما أنه لا يقال لشيءٍ ما أنه سائل وليس بسائل، أو أنه جامد وليس بجامد، ونحو ذلك.

٣- إن عبارة (الله جسم لا كالأجسام) عبارة فيها نظر لأنها تضمنت وصف الله سبحانه بأنه جسم على المعنى الذي دلت عليه كلمة (جسم)، ونفي ذلك بقولنا: (لا كالأجسام) كلام لا معنى له، كما نقول عن الإنسان: إنه حيوان لا كالحيوانات، أو عن النعامة: إنها طير لا كالطيور، فقد أَخْبرْنا بذلك أن الإنسان حيوان، وأن النعامة طير، وقولنا عن الإنسان: لاكالحيوانات، وعن النعامة: لاكالطيور، لاينفي ماأخبرنا به أولاً، وذلك بعكس قولنا: (الله تعالى شيء لا كالأشياء) فإنها عبارة صحيحة، لكونها تضمنت وصف الله تعالى بأنه شئ، وهذا يقتضي وصفه بأنه موجود، وأنه حي قادر..الخ، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[الطور:٣٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ

شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّـهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾[الأنعام:١٩]، وقولنا: (لا كالأشياء) هو في معنى لا يشبهه شيء على نحو قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١].

٤ - أن الإسم في اللغة ما دل على مسمى؛ فالعين مثلاً تعني الجارحة المخصوصة التي هي آلة الإبصار، فإذا قلنا مثلاً: لله تعالى عين تليق بجلاله، فقد أثبتنا لله سبحانه هذه الجارحة التي يلزم من وجودها الإبصار، ويلزم من عدمها عدمه، على النحو الذي دلت عليه عبارة : (لله عين)- تعالى الله عن ذلك- وقولنا: (لا كالأعين)، أو (تليق بجلاله)؛ كلام لا معنى له، لأنها في مثل قولنا: (للمَلَك عين لا كالأعين، وللجني عين لا كالأعين) باعتبار أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن الملائكة بقوله: ﴿**كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار:١١-١٢]، ومعلوم أنه لا يمكنهم أن يعلموا ذلك إلا إذا كان لهم آلات يسمعون بها أقوالنا، وآلات يرون بها أفعالنا، وأخبر تعالى عن إبليس والشياطين بقوله: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**﴾ [الأعراف:٢٧]، وأخبرنا عن الجن أنهم يسترقون السمع، وأن منهم من حضر مجلس الرسول ﷺ، واستمعوا القرآن فآمنوا به، ولا شك بأن الجن لا يمكنهم ذلك إلا أن تكون لهم آلات يتمكنون بواسطتها من الاستماع والرؤية، فدل ذلك على أن للملائكة والجن والشياطين أسماعاً يسمعون بها، وأن لهم أبصاراً يرون بها وينظرون، وإن كنا لا نعلم كنهها ولا كيفيتها، فصح أن نثبت لهم هذه الآلات لأنهم مخلوقون محدثون، لا يخرجون عن

كونهم أجساماً، غير أنه لا يمكن لنا إدراكهم بالحواس، بخلاف الله سبحانه وتعالى فإنه ليس بجسم ولا يشبه الأجسام .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه يسمع ويرى فلا يعني ذلـك أن لله سبحانه وتعالى آلة يسمع بها، أو آلة يبصر بها -تعالى الله عن ذلك- لأننـا إذا كنـا قد جزمنا أن المخلوقات والأجسام لا تسمع ولا تبصر ولا تحـدث أي فعـل إلا بأعضاء وجوارح وآلات تتمكن معها من السمع والبصر وإحداث الفعل، فـإن ذلك يقضي أن نجزم بأنه سبحانه وتعالى يسمع ويرى، ويفعل ما يشاء، بـلا آلـة ولا أعضاء ولا جوارح، إذ هو تعالى غني عنها غير محتاج إليها.

فدل ذلك كله على أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات، وأنه لا يجوز أن يوصف الله تعالى بشيء من صفات الأجسام والمحدثات، ولا أن ينسب إلى الذات الإلهية شيء من الجوارح والأعضاء، والأدوات والأجـزاء، ومـا ورد في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية الصحيحة، مما ظاهره يدل على نسـبة شيء من ذلك إلى الله تعالى، أو وصفه به، فتفسر بحسب معانيها اللغوية، وبما ينزه الله تعالى عن الجسمية ومشابهة المخلوقات بما يقتضي له الكمال سبحانه .

ومن كلام أمـير المـؤمنين في وصـف الله عـز وجـل وتنزيهـه عـن الحـدوث والجسمية ومشابهة المخلوقات قوله عليه السلام: « كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِـكَ[1] إِذْ شَـبَّهُوكَ

(١) الْعَادِلُونَ بِكَ: الذين عدلوا بك غيرك فساووه بك وجعلوه لك نظيراً ومشابهاً .

بِأَصْنَامِهِمْ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ المَخْلُوقِينَ[1] بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ المُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ[2] المُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ، مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً[3]، وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا[4] فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً[5]»[6].

وقوله: «مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ[7]، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ[8]، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ[9] مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ[10]، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ[11]، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ[12]، لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ[13] الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ

---

(١) نَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ: وصفوك بصفات المخلوقين .

(٢) قَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ: قاسوك بالمخلوقات.

(٣) مُكَيَّفاً: ذاكيفية معينة مخصوصة .

(٤) رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا: تخيلات الخواطر وظنونها .

(٥) مَحْدُوداً: مكيفا بكيفية محدودة . مُصَرَّفاً: تصرفك العقول بأفهامها فتتوصل إلى معرفة كيفيتك .

(٦) نهج البلاغة،ج١، الخطبة رقم (١٨٦) "بتصرف يسير".

(٧) كَيَّفَهُ: جعل له كيفية محددة مخصوصة.

(٨) مَثَّلَهُ: جعل له مثل وشبيه.

(٩) صَمَدَهُ: قصده وتوجه إليه.

(١٠) مَعْلُولٌ: له علة أوجدته فهو مصنوع مخلوق.

(١١) جَوْلِ فِكْرَةٍ: تفكر وتأمل.

(١٢) بِاسْتِفَادَةٍ: بسعي وعمل .

(١٣) تَرْفِدُهُ: تعينه.

كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالاِبْتِدَاءَ أَزَلُهُ... لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ[1]، لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ، لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ، وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ، وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ[2]، وَلَا يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ، وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ[3]، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ، لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ[4]، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ، يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ[5]، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ، يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ، يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ، لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ... »[6].

---

(١) الْأُفُولُ: الغياب.

(٢) الْغَيْرِيَّةِ: التغير والتحول . الْأَبْعَاضِ: الأقسام والأجزاء.

(٣) فَتُقِلَّهُ: تحمله. تُهْوِيَهُ: تسقطه .

(٤) وَالِجٍ: داخل فيها ممازج لها .

(٥) لَهَوَاتٍ: جمع لهاة، وهي لحمة في سقف أقصى الفم.

(٦) نهج البلاغة، ج١،الخطبة رقم (١٨٦) .

المحكم والمتشابه

جاء في القرآن الكريم وصف القرآن وآياته بأنها متشابهة، قال تعالى: ﴿**اللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّـهِ**﴾[الزمر:٢٣]، وأخبر تعالى أن آيات القرآن الكريم منها ما هو محكم ومنها ما هو متشابه فقال عز من قائل: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّـهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران:٧].

فوصْف القرآن الكريم أنه متشابه يعني أن القرآن الكريم يشبه بعضه بعضاً، وأنه لا يختلف أوله عن آخره، ولا آخره عن أوله، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فمع طول القرآن الكريم وتعدد سوره وآياته لا يوجد في كتاب الله الكريم تناقض ولا اختلاف في آياته وأحكامه، قال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّـهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾ [النساء:٨٢]، غير أن بعض آيات القرآن الكريم قد توحي ظواهرها بأن فيها شيئاً من الاختلاف والتباين، وقد يجد غير المتأمل تناقضاً في بعض آيات الكتاب الحكيم، وهذا هو ما أخبر عنه رب العزة تبارك وتعالى في وصفه لآيات القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[آل عمران:٧]، أي تحمل معاني كثيرة، ووجوهاً متعددة، لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، لذلك

نجد لغة القرآن الكريم لغة مرنة، تحمل الآية أو الكلمة منه كثيراً من المعاني والدلالات؛ فمنها ما يأتي على الحقيقة، ومنها ما يأتي على المجاز، ومنها ما يأتي على الكناية، ومنها ما يأتي على التصريح .

وهذا يعني أن من الضروري الموافقة بين آيات القرآن الكريم، وذلك برد ما هو متشابه، إلى ما هو محكم، لأن المحكم هو أصل الكتاب ودليله الواضح، لذلك أخبر تعالى عن الآيات المحكمات أنها (أم الكتاب) أي أصله المعمول عليه.

ومن هنا نعلم أنه لا يصح الوقوف على الآيات المتشابهة وحملها على ظاهرها، الأمر الذي قد يؤدي إلى سوء الفهم لآيات الكتاب الكريم، وتفسير كلام الله تعالى بغير معناه، ومن ذلك مثلاً: قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٢]، . وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقوله تعالى: ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾ [التوبة:٦٧].

فإن حمل هذه الآيات وأمثالها على ظاهرها يفسد المعنى، ويجعلنا نتقوّل على كتاب الله تعالى ما لم يقله، ونفسر كلام الله تعالى بغير مراده .

ومن هنا كان لا بد وأن تفسر تلك الآيات المتشابهة بما يتناسب مع مدلولها اللغوي المتعارف عليه في لغة العرب التي تنزل القرآن بها؛ قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿**قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الزخرف:١-٣].

وعلى هذا يكون تفسير العمى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢]، بعمى البصيرة وهو الضلال عن الحق والابتعاد عن الخير، أي: ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير، فهو في الآخرة أشد عمى وأشد ضلالاً عن طريق السعادة والنجاة.

ويفسّر الوجه في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، بذات الله سبحانه، فيكون المعنى: كل شيء سيفنى ويزول ولا يبقى بعد فناء الخلق وزوالهم إلا الله تعالى.

ويفسّر النسيان المنسوب إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، بمعنى الترك والخذلان، أي أنهم لما تركوا طاعة الله واتباع أمره تركهم الله من توفيقه وهدايته، وجعلهم كالشيء المنسي المهمل.

وهكذا تفسّر سائر الآيات الموهمة لتشبيه الله تعالى بخلقه، ووصفه بما لا يليق به سبحانه، وتُؤَوَّل تلك الآيات على حسب مدلولها اللغوي وبما ينزه الله سبحانه وتعالى عن مساواة المخلوقين، ومشابهة الأجسام والمحدثات.

وهذا النوع من التفسير أو التأويل ليس أمراً محدثاً ولا مخالفاً لما كان عليه رسول الله ﷺ والسلف الصالح من الصحابة وأهل البيت والتابعين ومن سار على نهجهم من علماء هذه الأمة ومجتهديها على مر العصور منذ نزول الوحي على الرسول ﷺ حتى يومنا هذا[1]، غير أن الأمة ابتليت بفئة ممن ادعوا العلم

---

(١) راجع مؤلفات حسن السقاف وتحقيقاته، ومنها: صحيح شرح العقيدة الطحاوية،و تحقيق كتاب العلو للعلي الأعلى =

وليسوا من أهله، جمدت عقولهم على ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة، فنتج عن ذلك ظهور عقيدة التجسيم والتشبيه، وأُلِّفَت لذلك الكتب والمؤلفات حتى وجدنا في هذا العصر وفي عصور متأخرة مؤلفات تهتم بتشريح الخالق سبحانه وتعالى وذكر أعضائه وأجزائه!! والاستشهاد لذلك بآيات من كتاب الله تعالى، وبأحاديث من سنة الرسول ﷺ، ويقولون: (نصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله دون تأويل ولا تعطيل!!)... إلى آخر تلك المقولات التي صارت اليوم دين الناس وديدنهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

التأويل والتفويض

التأويل: هو تفسير المتشابه برده إلى المحكم، عن طريق القواعد التي وضعها علماء اللغة، على النحو الذي سنشير إليه في السطور التالية .

وأما **التفويض**: فهو التوقّف عن التأويل، وإحالة علم ذلك إلى الله تعالى، على نحو قول الإمام مالك- وقد سئل عن الاستواء- فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

والتفويض في مجمله هو الاعتراف بالعجز وعدم العلم، أما التأويل فهو إعمال العقل، وبذل الجهد لمعرفة معنى الآية ومدلولها، وإذا كان هناك من يفضّل التفويض ويجنح إليه، فإننا نفضّل التأويل وندين الله به، لأن القرآن الكريم نزل

لابن الجوزي، وتحقيق كتاب دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، وغيرها.

من عند الله تعالى، والمخاطب به ليس هو الرسول ﷺ وحده، بل هو خطاب لجميع العقلاء من الإنس والجن، منذ عهد النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد خاطبهم بما يفهمونه، لأنهم مطالبون بتنفيذ أوامر القرآن، واجتناب نواهيه، والإيمان بما فيه.

ويستحيل أن يكون في كتاب الله تعالى ما لا معنى له، أو أن الله قد خاطب عباده خطاباً لا يفهمه أحد من المكلفين، ولا يعرف أحد منهم معناه، لأن مثل هذا الخطاب يكون كمخاطبة من لا يعقل، وهذا النوع من الخطاب يكون لغواً وعبثاً، والقرآن الكريم منزه عن اللغو، كما أن الله سبحانه وتعالى منزه عن العبث، قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[النحل:٦٤]، وقال تعالى: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[الإسراء:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾[فصلت:١-٤].

فقد أخبر تعالى في هذه الآيات أن آيات القرآن الكريم مفصَّلة مبيَّنة، وأنها إنما نزلت لتكون مصدر هداية للناس، لذلك جاءت بلغة العرب التي يعرفونها ويتخاطبون بها، ولم يكن هذا القرآن إلا باللغة العربية الفصيحة، قال تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

ومن هنا نعلم أن آيات القرآن الكريم بَيِّنَة المعنى، واضحة الدلالة، غير أن الإحاطة بمعاني آيات القرآن ومدلولاتها لا يناله سائر الناس على حد سواء، وإنما يعرف ذلك ويفهمه أهل العلم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، فقد أشارت هذه الآيات إلى أن تأويل القرآن، والإحاطة بمعاني آيات الذكر الحكيم، ومعرفة تفسيره وأحكامه، إنما هو من اختصاص العقلاء، وأهل العلم الراسخين فيه، وأهل الاستنباط، وهم العلماء المجتهدون، وإذا كان معنى بعض آيات القرآن الكريم قد خفي على سائر الناس، فهو لا شك لا يخفى على أهل العلم الراسخين فيه، المجتهدين في استخراج درره واستنباط أحكامه قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم﴾ [يوسف:٧٦].

معاني الصفات

معاني الاستواء

ورد ذكر الاستواء في القرآن الكريم بعدة معانٍ منها:

١- **بمعنى الركوب؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**﴾[الزخرف:١٢-١٣] .

٢- **بمعنى الاستقرار؛** ومنه قوله تعالى -حاكياً عن سفينة نوح: ﴿ **وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾[هود:٤٥].

٣- **بمعنى تمام الشيء وكماله؛** ومنه قوله تعالى حاكياً عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [القصص: ١٤] .

٤- **بمعنى انتصاب الساق وقوّته؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ**﴾[الفتح: ٢٩].

٥- **بمعنى القصد إلى الشيء؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**﴾[البقرة: ٢٩].

٦- **بمعنى القهر والاستيلاء؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه:٥].

ومنه أيضا قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وقول آخر:

فلما علونا واستوينا عليهمُ ... تركناهمُ صرعى لنسر وكاسر

ولما كان الاستواء المذكور في الآية استواء على العرش الذي هو ملك الله تعالى وسلطانه لزم أن نفسر الآية على المعنى الأخير، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ أي استولى بقدرته وقهره على ملكه وسلطانه، فهو تعالى مدبر لهذا العالم، وكل شيء فيه لا يجري إلا بأمره ومشيئته، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[الأنعام:١٨].

معنى العلو

ورد في القرآن الكريم بعض الآيات الدالة في مجملها على علو الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿**أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ**﴾ [الملك:١٦-١٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[النحل:٤٩-٥٠]، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام:١٨].

وقد فسر بعضهم العلو المذكور في هذه الآيات وأمثالها بالعلو الحسي الذي يفهم منه حسب قولهم أن الله سبحانه في السماء، مستقر في مكان فوق العرش،

أو جالس على الكرسي المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾، أو نحو ذلك، وهذا مما لا يليق بالله جل وعلا، لأن الله تعالى ليس جسماً، ولا يشبه الأجسام، وهو تعالى غني لا يحتاج إلى الحيّز والمكان، ثم إنه تعالى قديم، ولا يصح أن تكون تلك المُحدثات التي هي: السماوات، والأرض، والعرش، والكرسي، ونحوها من المخلوقات، أماكن يتحيز فيها، أو يستقر عليها، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإلا للزم من ذلك أن تكون قديمة، وأن تكون أكبر من الذات الإلهية ومحتوية لها، وهذا أمر واضح البطلان، لذلك نقول إن هذه الآيات وأمثالها تحتمل عدة وجوه، منها:

١- **تعظيم شأن الباري تبارك وتعالى،** لأن العرب إذا أرادت تعظيم أحد وصفته بالعلو والفوقية، فيقولون: فلان في السماء، أو فلان أعلى من النجم، ويقال: فلان أعلى من فلان، أو فوقه إذا كان أعلى منه رتبة ومكانة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف:٧٦]. وقوله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل:٥٠] وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿**أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك:١٦]، أي أأمنتم من شأنه عظيم؟ أو هل أمنتم من العظيم الجليل أن يخسف بكم الأرض؟ أو نحو ذلك.

٢- **الإشارة إلى ملكوت الله عز وجل،** فكأنه قال: أأمنتم من في السماء ملكوته؟ وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، ومحل العرش وغيره من المخلوقات العلوية، ومنها يتنزل العذاب وينزل الوحي وتتنزل الكتب وأوامر الله تعالى ونواهيه، وإلى ذلك أشار رب العزة تبارك وتعالى بقوله: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ**

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

٣- **مخاطبة المشركين بحسب اعتقادهم،** لأن المشركين يعتقدون أن الله تعالى مستقر في السماء حال فيها- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وإلى ذلك أشار القرآن الكريم في حكايته عن فرعون بقوله تعالى: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾**[غافر:٣٦-٣٧].

فاللائق أن تؤول سائر الآيات والأحاديث الدالة على العلو والفوقيّة، على هذا النحو من التأويل المنزّه لله تعالى عن الجهة والمكان، وعن مشابهة المخلوقات والأجسام، قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾** [الزخرف:٨٤]، وقال تعالى: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾** [الحديد:٤].

وإذا كنا نتوجه بالدعاء إلى جهة السماء، فليس معنى ذلك أن الله تعالى في السماء، وإنما على اعتبار أن السماء هي قبلة الدعاء، كما أن الكعبة هي قبلة الصلاة.

وأما قوله تعالى: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر:١٠] ونحوها من الآيات، فإن الرفع هنا كناية عن قبول العمل ومضاعفة الأجر، وفي الحديث: « ثَلاَثَةٌ لاَ تُقْبَلُ لَهُمْ صَلاَةٌ وَلاَ تَصْعَدُ لَهُمْ حَسَنَةٌ. .»[1]، ومعناه: لا تُقبل منهم صلاة، ولا يتقبّل الله لهم حسنة، أي لا

(١) تمام الحديث: " الْعَبْدُ الآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَوَالِيهِ فَيَضَعُ يَدَهُ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْمَرْأَةُ السَّاخِطُ عَلَيْهَا زَوْجُهَا، وَالسَّكْرَانُ =

يؤجرون عليها، ومنه قولهم: رُفع الأمر إلى القاضي، ورُفع التقرير إلى المدير أو الرئيس، ونحو ذلك.

وأما حديث النزول وفيه: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا، حين يبقى ثُلثُ الليلِ الآخِرُ، فيقول : من يَدعُوني فأَستجيبَ له ؟ مَن يَسْألُني فأُعْطِيَهُ ؟ مَن يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[١]، وفي رواية قال : «يَنْزِلُ اللَّهُ تعالى إلى السماءِ الدُّنيا كُلَّ لَيلةٍ حين يَمضي ثُلُثُ الليلِ الأولُ، فيقول : أَنَا الملكُ ... الحديث» إلى آخره، وفي رواية: «حتى يُضيءَ الفَجْرُ»[٢]، وفي أخرى : « إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ ، أَوْ ثُلُثَاهُ ، يَنْزِل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا فَيَقُول: هَلْ مِنْ سَائِل يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَاب لَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِر فَيُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِر الصُّبْح»[٣]

فليس في هذه الروايات وأمثالها دليل العلو الحسي لله تعالى، فهي – إن صحّت[٤] – مؤوّلة بنزول رحمة الله تعالى، لأن النزول حركة وانتقال، والله تعالى منزّه عن الحركة والانتقال.

ثم إن حمل هذه الروايات على ظاهرها يقتضي الحلول، وهو أنه تعالى كان في العرش ثم حلّ في السماء الدنيا في بعض ساعات الليل، وهذا يقتضي أن يكون

حَتَّى يَضْحُوَ "- رواه ابن خزيمة في صحيحه، والطبراني في معجمه الوسيط، والبيهقي في سننه الكبرى عن جابر بن عبدالله .

(١)رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأبوداود عن أبي هريرة ..

(٢) رواه مسلم وأحمد والترمذي عن أبي هريرة .

(٣)رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٤) والذي يظهر أنها أحاديث ضعيفة بعيدة عن الصحة، لما فيها من الاضطراب في متنها، بما لا يخفى على ذهن اللبيب، والله أعلم.

الله – تعالى الله عن ذلك – حالاً في السماء الدنيا على الدوام والاستمرار، لأن نصف الليل أو ثلثه الأخير أو الساعات الأخيرة منه لا تخلو الأرض منها، كما لا تخلو من سائر الأوقات بفعل دوران الأرض في المجموعة الشمسية حول نفسها، وما من شك أن ذلك محال في حق الله تعالى لأنه تعالى منزّه عن الحلول، وعن الحركة والانتقال .

لذلك كان لابدّ وأن تؤول مثل تلك الأحاديث المذكورة وغيرها بما ينزه الله تعالى عن صفات المحدثات والأجسام، فيفسر نزول الله تعالى بنزول الرحمة، أو قبول الدعاء والاستغفار في مثل تلك الأوقات الفاضلة .

والذي نعتقده ونجزم به أن النزول الحسي إنما هو للملائكة، ويدل على ذلك ما أخبر به تعالى عن نزول الملائكة في ليلة القدر بقوله تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾[القدر:٤-٥]، ويشهد لذلك مارواه الإمام أبو طالب في أماليه عن علي عليه السلام بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِيْ آخِرِ سَاعَةٍ تَبْقَى مِنَ اللَّيْلِ يَأْمُرُ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُفْتَحُ ثُمَّ يُنَادِي مَلَكٌ يُسْمِعُ مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ إِلاَّ الإِنْسِ وَالجِنِّ: أَلاَ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرُ لَهُ...» الحديث، ومارواه أبويعلى في مسنده عن أبي سعيد وأبي هريرة: « إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثُ اللَّيْلِ أَمَرَ مُنَادِياً فَيُنَادِي: هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَيُتَابُ عَلَيْهِ؟ »، ونحو ذلك من الأحاديث، والله تعالى أعلم .

معنى الإتيان والمجيء

وكما يؤوّل النزول على المعنى الذي ينزّه الله سبحانه عن الحركة والانتقال، يؤوّل كذلك الإتيان والمجئ، إذ لا يصح نسبتهما إلى الله تعالى، لأنهما يتضمنان معنى الحركة والانتقال، والله تعالى منزّه عن ذلك، ولأن الإتيان والمجئ والانتقال لا يكون إلا للغائب، والله تعالى لا يخلو منه مكان، لذلك لزم تفسير الآيات والأحاديث، وتأويلها على المعنى الذي ينزّه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة الأجسام والمحدثات، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالمَلاَئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾[الأنعام:١٥٨].

فيفسر إتيان الله تعالى في هذه الآيات وأمثالها بنزول العذاب، فيكون المعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بعذاب من عنده، أويرسل عليهم ملائكته الموكلة بالعذاب .

ويفسر المجئ في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، بمجئ أمر الله تعالى وإذنه بقيام الساعة، لأنه لا يصح أن يكون إتيان الله ومجيئه من جنس إتيان الملائكة ومجيئهم، فيكون معنى الآية: ويوم أن يأذن الله بقيام الساعة يأتي أمر الله أو إذنه بقيامها، ويحضر الملائكة فيكونون قائمين مصطفّين منتظرين أمر الله وحكمه.

معنى النفس والروح

ورد في القرآن الكريم لفظ النفس والروح مضافين إلى الله تعالى في عدة مواضع من الكتاب الحكيم، وعلى معان مختلفة، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨و٣٠]، أي عقابه.

- قوله تعالى في حكايته عن موسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]، أي جعلتك رسولاً لتبليغ وحيي، وإقامة ديني، وإحياء شريعتي.

- قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك، أو تعلم شأني ولا أعلم شأنك.

وأما قوله تعالى – حاكياً عن آدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص:٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة:٩]، فإن إضافة الروح إلى الله تعالى هو إضافة تشريف لآدم، وبيان لمكانة الإنسان وتكريمه وتميزه عن كل ما له روح من المخلوقات الحية على ظهر هذا الكوكب، وذلك مثل إضافة البيت إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]، فإضافة البيت إلى الله تعالى هنا هي إضافة تشريف لبيان مكانة البيت الحرام وقدسيّته.

معنى الوجه والجنب

ورد لفظ الوجه مضافاً إلى الله تعالى في عدة مواضع مـن كتـاب الله الكـريم، ويـراد بـه الـذات الإلهيـة، وذلـك كـما في قولـه تعـالى: ﴿**كُـلُّ شَيْءٍ هَالِـكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَـى وَجْـهُ رَبِّـكَ ذُو الْجَـلاَلِ وَالإِكْـرَامِ**﴾ [الـرحمن:٢٦-٢٧]، وقولـه تعـالى: ﴿**فَـأَيْنَمَا تُوَلُّـوا فَـثَمَّ وَجْـهُ اللَّـهِ**﴾[البقرة:١١٥]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّـهِ**﴾ [الإنسان:٩] .

فإن الوجه في هذه الآيات ونحوها يفسر على معنى الذات الإلهية، وعَبَّر عنها بالوجه، لأن العرب تذكر الجزء ويراد به الكل، ومنه قولهم: جاء الرجل عينـه - أي ذاته- ومثله أيضاً قول الخاطب لولي المرأة: جئتك طالباً يد ابنتـك، وقـولهم: وجهي ضامن على فلان بكذا، ونحو ذلك.

وما من شك أن تأويل الوجه في الآيات المذكورة وغيرها بالذات الإلهية أمـر ضروري يقتضيه المحافظة على سـلامة المعنـى وصـحته، لأن حمـل الوجـه عـلى العضو المخصوص يلزم منه أن يقال في مثل قوله تعـالى: ﴿**كُـلُّ شَيْءٍ هَالِـكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصـص:٨٨]، أن كل شيء من الذات الإلهية سيفنى ولا يبقى إلا الوجـه، وهذا ما لا يقول به عاقل علاوة على أن يقول به مسلم.

أما **الجنب** فإنه لم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة وذلك في قولـه تعـالى: ﴿**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّـهِ**﴾ [الزمر:٥٦]، والمراد به هنـا أمر الله وحقه المفترض على العباد من الطاعة والعبادة.

معاني السمع والبصر

وصف الله تعالى نفسه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بأنه سميع، وأنه بصير، وقد وردت الصفتان تارة بلفظ الإسم (سميع- بصير)، وتارة بلفظ الفعل (سمع - رأى)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وقوله تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩] .

فهذه الآيات ونحوها إنما جاءت للدلالة على علم الله تعالى، وإحاطته بكل المسموعات والمُبْصرات، ولا يدل ذلك على ما توحي إليه ظواهر الآيات من أن لله عز وجل آلة سمع أو آلة بصر- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- لأن لفظ السمع والبصر وما في معناهما كالنظر والرؤية ونحوها هي ألفاظ مشتركة بين عدة معانٍ ومنها:

- **العلم**، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف:٨٠]، أي نعلم ما يسرونه في أنفسهم وما يتناجون به بينهم، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٤]، أي لنعلم المؤمن الصادق من الكافر والمنافق.

- **القبول والإجابة**، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل:٨٠]،

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢]. أي لا يقبلون دعوتك ولا يستجيبون لنصحك وموعظتك.

معاني العين

أما العين فقد تأتي بمعنى **العلم** كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود:٣٧]، أي بعلمنا، وقد تأتي بمعنى **الحفظ والرعاية**، ومنه قوله تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩]، وقوله تعالى حاكياً عن سفينة نوح عليه السلام: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وقوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، أي في حفظنا ورعايتنا.

معاني اليد

ورد لفظ اليد مضافاً إلى الله تعالى بلفظ المفرد والتثنية والجمع في عدة مواضع من القرآن على عدة معان، منها:

١- **بمعنى الفعل والإيجاد:** ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، أي ما خلقته أنا ولم يخلقه غيري، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يونس:٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

٢- **بمعنى الاختصاص والتملك:** ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٧٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ

شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

٣- **بمعنى العطاء والنعمة:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤]، فقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كناية عن البخل- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً- وقوله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ كناية عن كرم الله تعالى وسعة فضله، وذلك أن نعمه على عباده دائمة مستمرة لا تنقطع.

٤- **بمعنى النصر والتأييد:** ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، أي عونه وتأييده، بمعنى أنه معينهم وناصرهم. ومنه قولهم:"يد الله مع الجماعة".

٥- **بمعنى القدرة أو القوة والسلطان:** ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، أي في قدرته وسلطانه، وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:٦٧]، أي في ملكه وتحت سيطرته. . ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي مجموعة بقدرته فهي تحت تصرفه وطوع إرادته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٥]، أي لأخذناه بقوة وقدرة، ومثله قول الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمينِ

(لا تدركه الأبصار. .)

نفي الرؤية..

وقع الاختلاف بين فرق الأمة ومذاهبها حول رؤية الله تعالى، فمنهم من يثبتها، ومنهم من ينفيها.

والمثبتون للرؤية على قولين: منهم من قال إن الرؤية ممكنة في الدنيا وفي الآخرة، ومنهم من قال إن الرؤية ممكنة في الآخرة دون الدنيا.

والقائلون بأنها ممكنة في الآخرة على قولين: فمنهم من قال إنها ستكون في الجنة وفي عرصة القيامة، ومنهم من قال إنها في الجنة فقط دون عرصة القيامة.

والذي ذهب إليه الأئمة الأعلام من أهل البيت ومن وافقهم: أن الرؤية غير ممكنة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام:١٠٣]، باعتبار أن هذه الآية من الآيات المحكمة الواضحة الدلالة، والتي تدل دلالة قطعية على نفي رؤية الله تعالى واستحالتها من عدة وجوه:

أولاً: أن الآية وردت في معرض المدح لله تعالى، ووصفه بصفات الكمال، وهو أنه تعالى ليس له زوجة، وليس له ولد، ولا تدركه الأبصار، حيث يقول الله تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ**

شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠١-١٠٣]، وما من شك أن ما امتدح الله به نفسه لا يختص بوقت دون وقت، ولا بزمن دون زمن، فكما أنه لا يصح أن نقول في قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ [الجن:٣]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١]، ونحو ذلك من الصفات إنها مخصصة بالدنيا دون الآخرة، أو بالآخرة دون الدنيا، فكذلك لا يصح أيضاً أن يحمل قوله تعالى : ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ على معنى: أنه لا تدركه الأبصار في الدنيا فقط دون الآخرة، وإنما الصحيح هو حمل الآية على عمومها دون تخصيصهما بزمن، على نحو الآيات المذكورة في نفي النوم والزوجة والولد والشريك عن الله تعالى في سائر الأزمان والأوقات، لأننا نعلم أن كل ما في الكون يفنى ويتغير إلا الله تعالى فإنه لا يفنى ولا يتغير، وكذلك صفاته التي وصف بها نفسه فإنها صفات ثابتة في حق الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير.

ثانياً: أن الله تعالى امتدح نفسه بأنه ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فعبر عن الرؤية بإدراك البصر، الذي يفيد قطعاً النظر والرؤية بالعين، ولا تحتمل أي معنى آخر، بدليل أنه لا يصح أن يقال: لا تدركه الأبصار لكنها تراه أو تنظر إليه.

ثالثاً: أن النفي جاء بلفظ العموم الدال على الاستغراق، فقوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ دليل على استغراق ذلك النفي في كل الأبصار، لا فرق في ذلك بين أبصار أهل الدنيا وأبصار أهل الآخرة، ولا فرق كذلك بين أبصار

الإنس وأبصار الملائكة، ولذلك ردت عائشة قول من قال: إن محمداً عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام رأى ربه ليلة المعراج، وقالت للسائل: لقد قف شعري مما قلت؛ أين أنت من ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم تلت قوله تعالى: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى:٥١]، ومن حدثك أن أحداً يعلم ما في غدٍ فقد كذب، ثم تلت قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...**﴾ [لقمان:٣٤]، الآية. ومن حدثك أن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، ثم تلت قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة:٦٧]، فقال الرجل- واسمه مسروق- : يا أم المؤمنين أَنْظِريني ولا تعجليني، أرأيتِ قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ [النجم:١٣]، قالت عائشة: ذاك جبريل لم يره رسول الله في صورته التي خلق فيها إلا مرتين- تعني أن إحداهما عند سدرة المنتهى[(١)].

هذا من ناحية دليل النقل، أما الأدلة العقلية على نفي رؤية الله تعالى فيمكن تلخيصها في الآتي:

أولا: أن الرؤية لا تقع إلا على الأجسام التي تكون في هيئة وصورة (شكل)، أو الأعراض الحالَّة في هيئة وصورة كاللون ونحوه، والله تعالى ليس بجسم ولا

---

(١) رواه البخاري، ومسلم وابن أبي يعلى عن مسروق .

عرض، فهو منزّه عن الهيئة والصورة، أو أن يكون حالاً في هيئة وصورة، مما يعني أن الرؤية غير ممكنة، والقول بأن رؤية الموجود ممكنة؛ لا يصح الاستدلال به في مثل هذا الموضوع، لأن هناك من الموجودات ما لا يمكن رؤيتها ولا معرفة ماهيتها، كما هو الحال في الروح، والعقل، والهواء، والكهرباء، والأثيرالذي ينقل الأصوات والصور، ونحو ذلك: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

ثانيا: أنه يستلزم من الرؤية أن يكون المرئي متحيِّزاً إلى جهة، وقد ثبت أن الله تعالى لا يحويه مكان، ولا يتحيز إلى جهة، لأن ذلك إنما هو من شأن الأجسام، والله تعالى ليس بجسم ولا يشبه الأجسام، وأما تمثيل رؤية الله برؤية النور، أو الضوء، أو القمر، أو الألوان، أو نحو ذلك، فهي من التشبيهات الباطلة التي لا تجوز على الله تعالى لأنه تعالى لا يشبه شيئاً من خلقه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

ثالثا: أن الرؤية لو حصلت فهي إما أن تحيط بالذات الإلهية، وذلك يستلزم تحديد وجود الله وحصره في مكان دون مكان وفي جهة دون جهة. وإما أن تكون الرؤية لبعض الذات الإلهية، وهذا يستلزم تجزؤ الذات الإلهية وتبعيضها، وكل ذلك محال، لأن الذات الإلهية لا تتحيّز إلى جهة، ولا تتجزأ إلى أجزاء، لأن التحيز والتجزؤ إنما هو من صفات الأجسام المركبة من أعضاء وأجزاء ينضم بعضها إلى بعض، بخلاف الذات الإلهية فإنها واحدة لا تتعدد ولا تتجزأ.

شبه وردود

ينحصر دليل المثبتين للرؤية في الآتي:

١- قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

٢- قوله تعالى في سياق بيان عاقبة الكفار والمشركين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

٣- سؤال موسى لله عز وجل أن يمكّنه من رؤيته، ووجه استدلالهم بذلك أنه لو لم تكن الرؤية ممكنة لما سألها موسى عليه السلام.

٤- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وذلك أنه ثبت بطريق الأثر تفسير الزيادة هنا بالرؤية.

٥- الأحاديث الواردة في ذلك، كحديث جرير بن عبد الله قال: كنا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِى رُؤْيَتِهِ»(١)، وفي رواية: عن أبى هريرة قال: قال ناس: يا رسول اللَّهِ أنرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِى الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِى سَحَابَةٍ؟». قالوا: لا. قال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِى سَحَابَةٍ؟». قالوا: لا. قال «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَتِهِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا»(٢)، ونحو ذلك من الروايات.

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن جرير بن عبدالله البجلي.

(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة وأبوداود عن أبي هريرة.

وهذه الأدلة وغيرها تجعلنا نقف من القائلين بالرؤية دونما تشبيه ولا تجسيم موقف التسامح واحتمال العذر لهم، غير أنا لا نسلم لهم في صحة اجتهادهم، لأن تلك الأدلة- وأي أدلة أخرى- يمكن التسليم بها لو لم يرد النص الصريح بنفي الرؤية، وهو قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فأما مع وجود هذا النص القرآني الصريح الذي يدل دلالة قطعية على نفي الرؤية البصرية للذات الإلهية المقدسة، فقد صار من اللازم علينا تأويل النصوص المتشابهة من القرآن أو السنة بما لا يتعارض مع المحكم من كتاب الله تعالى، وذلك لتنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة الأجسام والمحدثات، ووصفه بصفات الكمال المطلق.

ويمكن أن نناقش الأدلة المذكورة بشيء من الاختصار لبيان الحق، وإزالة الإشكال، ودفع الشبهة، في النقاط التالية:

أولاً: أن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وردت في سياق ذكر حال المؤمنين يوم القيامة، والمقارنة بين حالهم وحال غيرهم من الكفار والمشركين والعصاة، وقد ذهب أئمة أهل البيت وبعض أهل العلم إلى أن معنى الآية: أن وجوه المؤمنين يوم القيامة تكون مشرقة حسنة، ناظرة إلى ثواب ربها، ومنتظرة ما يأتيها منه من الفضل والرحمة، والثواب الجزيل، والنعيم المقيم في دار الخلود، وقد ذهبوا إلى تفسيرها بهذا المعنى من عدة وجوه:

الأول: أن لفظ النظر مشترك بين أكثر من معنى، ومن معاني النظر الواردة في

القرآن الكريم:

أ- **نظر العين؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [االأعراف:١٩٨].

ب- **التفكر؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ..**﴾ [الغاشية:١٧]، وقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف:١٨٥].

ج- **الرحمة؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**﴾ [آل عمران:٧٧]، أي لا يرحمهم. وقد يكون بمعنى القبول، ومنه قول إمام الصلاة: إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج؛ أي: لا يقبل منهم صلاتهم.

د- **الانتظار والترقب؛** ومنه قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ**﴾ [البقرة:٢١٠]، وقوله تعالى: ﴿**مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً**﴾ [يس:٤٩]، وقوله تعالى على لسان بلقيس ملكة اليمن: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [النمل:٣٥].

الوجه الثاني: أن الآية قسّمت الناس يوم القيامة إلى طائفتين فذكر عن الطائفة الثانية أن وجوهها باسرة- أي كالحة مكفهرة- ﴿**تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾ [القيامة:٢٥]، أي تتوقع أن ينزل عليها ما يقطع فقار ظهورها وهو العذاب، فاقتضى ذلك أن تكون الطائفة الأولى مباينة لها في أحوالها، فوصفتها أنها

﴿نَاضِرَةٌ﴾ أي مبتهجة حسنة مشرقة، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي منتظرة راجية لثواب الله ورحمته، فنضارة هذه الوجوه وحسنها في مقابل بِسُور تلك وكلاحتها، وانتظار هذه لرحمة الله وثوابه، مقابل توقع تلك لعذاب الله وجزائه، وهذا التأويل يتفق مع قوله تعالى في سورة عبس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٣٨-٤١]، إذ لا فرق بين ما وصفت به وجوه المؤمنين هنا في سورة عبس من الضحك والاستبشار، وما وصفت به من النضارة والإشراق في سورة القيامة، و ﴿مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ﴾ هنا، يقابلها ﴿نَاضِرَةٌ﴾ هناك، و﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ هنا، يقابلها ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هناك، فإن المنتظر للرحمة مستبشر بها، والمنتظر والمستبشر منتظر لما استبشر به[(١)].

ثانياً: أن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، استدلال غير صحيح لأن الآية دلت أن الكفار يوم القيامة محجوبون عن الله، والحجب هنا هو في معنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٧٧]، والمعنى أنهم محجوبون عن رحمة الله ومغفرته ورضوانه، وليس في الآية ما يدل على أن الله محجوب عنهم بمعنى أنهم لا يرونه، حتى يقال إنه يفهم من ذلك أن المؤمنين سيرونه وينظرون إليه!!.

---

(١) عن كتاب (الحق الدامغ) للشيخ أحمد الخليلي،"بتصرف".

ثالثاً: أن ما حكى الله عن موسى عليه السلام، وطلبه الرؤية إنما هو إخبار عن بني إسرائيل وتعنتهم في السؤال، مما يعني أن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه، بل سألها لقومه، فهو وإن كان قد أضاف السؤال إلى نفسه بقوله: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف:١٤٣]، فهو إنما أراد بذلك أن يقنع قومه بامتناع رؤية الله تعالى والنظر إليه، وذلك لأن الله تعالى خاطبه بقوله ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾، فإذا كانت الرؤية غير ممكنة لنبي الله وكليمه موسى عليه السلام، فعدم إمكانها لغيره بالأولى.

« فموسى عليه السلام ما سأل الرؤية طامعاً في حصولها، وإنما سألها ليكون سؤاله وسيلة من وسائل الإقناع الذي يحرص عليه، وأسلوباً من أساليب الدعوة التي يقوم بها، ومثله في ذلك مثل إبراهيم عليه السلام الذي قال عندما رأى الكوكب والقمر والشمس: ﴿**هَذَا رَبِّي**﴾، فإنه بالقطع لم يرد تأليهها وإنما أراد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بما قاله- مما ظاهره كفر وحقيقته إيمان وتوحيد- إقامة الحجة على من حوله من الذين يعبدون الأجرام السماوية، ويدل عليه قوله تعالى عقب حكاية قصته: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**﴾ [الأنعام:٨٣]»[1].

رابعاً: أن سؤال موسى عليه السلام للرؤية لا يدل على أنها ممكنة في حال من الأحوال لأن موسى عليه السلام ما سأل ربه الرؤية إلا بسبب إصرار قومه على ذلك،

(١) عن كتاب (الحق الدامغ) للشيخ أحمد الخليلي "بتصرف".

فسؤال الرؤية ابتداء كان من بني إسرائيل وليس من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بدليل أن الله تعالى استنكر على بني إسرائيل سؤالهم الرؤية وأنزل عليهم العذاب بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [البقرة:٥٥]، وقال تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾ [النساء:١٥٣].

فلو كانت الرؤية ممكنة بأي حال لكان طلبها جائزاً، ولو كان طلبها جائزاً لما نزل على بني إسرائيل العذاب لمجرد أنهم طلبوا الرؤية، لأننا نعلم أن بني إسرائيل قد سألوا الله عز وجل أموراً كثيرة، فما نزل عليهم العذاب لمجرد طلبهم لشيء من ذلك، بل إن الحواريين من قوم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما طلبوا أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء ﴿**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة:١١٥]، فجاء التهديد والوعيد ليس على طلب نزول المائدة، وإنما على الكفر والعصيان.

فإذا كان العذاب قد نزل على بني إسرائيل لمجرد أنهم طلبوا الرؤية فذلك دليل على أن طلب الرؤية والإصرار عليها يعد كفراً وعصياناً، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان:٢١]، فقد أخبر تعالى في هذه الآية أن طلب الرؤية والإصرار عليها يعد من استكبار النفس وعتوها عتوًّا كبيرا. ولذلك أخبر تعالى في آية الأعراف أن

موسى عليه السلام أدرك خطأه في استجابته لطلب قومه فاستغفر من ذنبه وتاب عن فعله، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

خامساً: أننا لو تأملنا جيداً الآية (١٥٣) من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:١٥٣]، لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر عن بني إسرائيل أمرين هما من أعظم ما اقترفته بنو إسرائيل وتجرأوا عليه:

الأمر الأول: أن بني إسرائيل تعنّتوا على موسى عليه السلام، وبلغ بهم التعنّت أقصاه حين أصرّوا على رؤية الله تعالى والنظر إليه.

الأمر الثاني: أنهم ارتدوا عن الدين، واتخذوا العجل إلها، وعبدوه من دون الله بعد أن نجاهم الله من فرعون، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنعم عليهم بصنوف النعم التي سألوها.

فإذا تأملنا في الآية فسنجد أن الله سبحانه وصف طلبهم للرؤية أنها كبيرة، وأنها ظلم (أي كفر وشرك)، ثم أخبر تعالى أنها كانت سبباً في استحقاقهم

العذاب ونزوله بهم، وأخبر تعالى بالمقابل أنه تجاوز عن عبادتهم العجل وعفى عنهم وغفر لهم اتخاذهم العجل إلهاً وعبادتهم له من دون الله، وكأن طلبهم لرؤية الله وإصرارهم عليها أعظم جرماً من عبادتهم العجل واتخاذهم له إلهاً من دون الله، مما يدل على أن طلب رؤية الله تعالى والإصرار عليها وتوقع حدوثها ظلم ومعصية لا تقل شأناً عن الشرك بالله والكفر به.

سادساً: أن تفسير الزيادة بالرؤية في قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾ [يونس:٢٦]، هو تأويل متعسف، فالزيادة في الآية لا تدل على الرؤية لا من قريب ولا من بعيد، لأن الزيادة لا تكون إلا من جنس المزيد، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[التوبة:١٢٤-١٢٥]، وقال تعالى: ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم:٧٦]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف:١٣].

ولا شك أن الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾وقوله تعالى: ﴿**لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ [ق:٣٥]، إنما هي من جنس نعيم الجنة، وهو الرضوان المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة:٧٢]، وقوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ**

مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّـهِ وَاللَّـهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران:١٥]، ونحو ذلك من الآيات .

وتفسير الزيادة على هذا النحو أولى من تفسيرها بالرؤية وغيرها، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، مما يعني أن تعويل المثبتين للرؤية في تفسيرهم للآية على حديث صهيب[1] لا يصح، لأن هذا الحديث من جملة الأخبار الآحادية التي لا يصح الاستدلال بها في المسائل العلمية الأصولية، ثم إن هذا الحديث معارض بالأحاديث الأخرى التي يروونها في هذا الباب، وهو أن الرؤية حاصلة في أرض المحشر، وأنها لا تخص أهل الجنة وأنها عامّة في سائر الموحدين من هذه الأمة، ويتعارض كذلك مع تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، واستدلالهم بها، مما يعني أن أحاديث الرؤية متعارضة ويصعب الجمع بينها إلا بتكلف، فيلزم من ذلك طرحها جميعاً لدفع التعارض بين آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ.

سابعاً: أن ما ورد في هذا الباب من أحاديث وأخبار كحديث: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِى رُؤْيَتِهِ »، وفي رواية: « كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِيْ الظَّهِيْرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، ونحو ذلك من الأحاديث، فإنها في مجملها أحاديث ضعيفة إما من جهة المتن أو من جهة السند، وقد ضعفها

---

(١) لفظ الحديث: « إِذَا دَخَلَ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة يَقُول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّض وُجُوهنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلنَا الْجَنَّة وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّار ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَاب ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَر إِلَى رَبّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَة : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة ﴾». رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن حبان .

كثير من أهل العلم[1] .

وعلى فرض صحة تلك الأحاديث أو بعضها فيمكن تأويل الرؤية بالعلم اليقيني، على نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣]، ومعلوم أن الموت لا يرى ولا يدرك بالحواس، لكن لما عاينوا ما حل بهم في المعركة من القتل والجراح أخبر عنهم أنهم رأوا الموت ونظروا إليه، وهذا هو حال الخلق يوم القيامة، فإنهم عندما يعاينون أهوال القيامة ومواقف الحساب، ويشاهدون ما أعد الله للعصاة من العذاب وما أعد للمؤمنين من النعيم، ويرون أنفسهم وقد خرجوا من قبورهم بعد أن كانوا رمياً، فإنه لا يسعهم حينذاك إلا الإيمان بالله، وعلمهم بوجوده، العلم اليقيني الذي لا يخالطه شك ولا ريب، وكأنهم يرونه رأي العين، فيكون علمهم بالله تعالى يوم القيامة ضرورياً لا يحتاجون فيه إلى نظر واستدلال، فهو في الجلاء والظهور بمنزلة علمهم بالقمر ليلة البدر.

---

(١) راجع كتاب (رؤية الله بين العقل والنقل) للأستاذ العلامة/ عبد الله حمود درهم العزي.

مستحق العبادة.. الله تعالى وحده

العبادة هي غاية التذلل والخضوع للمعبود، وهي تعني طاعة المعبود وتعظيمه والانقياد له.

ولقد أدرك الإنسان بفطرته أن له إلهاً خالقاً رازقاً يستحق الطاعة والعبادة، غير أن عقول البشر المحدودة تاهت في مهاوي الضلال فعبدوا غير الله، وذلك لأن من الناس من توهّم أن عظمة الله تكمن في النور والظلمة، ومنهم من توهّم أن عظمة الله تكمن في الشمس، والقمر، والكواكب، ومنهم من زعم أن أصل الوجود هو الماء، والنار، والتراب، ومنهم من عبد الدهر ظناً منه أن الدهر هو مانح الحياة وسالبها، ومنهم من عبد الجن، ومنهم من عبد الملائكة، ومن الناس من عبد الأوثان والأصنام ظناً منهم أنها تجسد صور الملائكة أو آلهة الخير، ولم يقف الأمر عند هذا الحد حتى وجدنا من الناس من عبد الحيوان كما هو حال الهندوس الذين يعبدون البقر ويقدسونها، وهلم جرا.

ولقد كان من نعمة الله تعالى على بني الإنسان أن بعث فيهم أنبياءه، وأرسل إليهم رسله، وأنزل فيهم كتبه، لتصحيح تلك المفاهيم الخاطئة، وتعريف الناس بربهم وخالقهم، وما يجب عليهم نحوه بإفراده بالطاعة والعبادة، فليس في هذا الوجود إلا إله واحد وهو الله تعالى، وكل ما سواه من خلقه- مهما عظم- فإنه محتاج إليه وخاضع له، لأنه تعالى هو الذي خلق الخلق وأوجدهم من العدم،

فكيف يصح إذن أن يعبد غير الله؟ وهل يجوز للإنسان الذي خلقه الله وكرمه وجعله سيداً على هذا الكون أن يعبد غير الله، ويسجد لمخلوق مثله؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

فالشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب، والظلمة، والنور، والماء، والنار، والتراب، والحجارة، والأنعام، جميعها مسخرة للإنسان، ومخلوقة لمصلحته ومنفعته، والله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها وأوجدها، فكيف يصح أن تكون آلهة تعبد من دون الله؟! ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَه مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٥٩-٦٤].

وأما الملائكة والجن والإنس فما هم إلا خلق من خلق الله، خلقهم لعبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال

تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وبالتالي فإنه لا يصح أن يكون جبريل عليه السلام، أو عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، أو أي أحد- كائناً من كان- أن يكون رباً يُعبد وإلهاً يُطاع من دون الله، إذ كيف يصح أن تكون تلك المخلوقات الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة آلهةً تُعبد، وأرباباً تُقدّس؟!، وهي لا تملك أن تقدم لنفسها نفعاً، ولا تدفع عن نفسها ضراً إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [المائدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣]، وقال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج:٧٣-٧٤].

وأما الأصنام والأوثان فهي أحقر من أن تكون نداً للإنسان، فكيف تكون نداً وشريكاً لله تعالى حتى تُعبد وتُقدّس؟!! قال تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا**

أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلاَ تُنظِرُونِي * إِنَّ وَلِيِّـي اللَّـهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُـوَ يَتَـوَلَّى الصَّـالِحِينَ * وَالَّـذِينَ تَـدْعُونَ مِـنْ دُونِـهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُـدَى لاَ يَسْـمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٨].

ففي هذه الآيات إشارة إلى حال الأصنام التي تّعبد من دون الله، وما شابهها من الأحجار، والأشجار، والبهائم، والأنعام، والشـمس، والقمـر، والنجـوم، والكواكب، والنار، وما إلى ذلك، من أنها لا تضـاهي الإنسـان، ولا تسـاويه في كمال خلقه، وما منحه الله سـبحانه وتعـالى مـن السـمع، والبصرـ، والجـوارح، والعقل، ونحو ذلك من الاعضاء والجوارح التي يتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات، فكيف يصح أن يعبدها الإنسان ويقدّسها، وهي أقل منـه في الخلـق والتكوين؟ لأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل، وليس لها أرجل تمشيـ عليهـا كالإنسان، ولا يد تبطش بها فتدفع الضر عن نفسها أو عن غيرها؟!

وإذا كانت بهذا الحال من العجز والضعف، فهل تستحق أن تُعبـد مـن دون الله، وتُقدّس، ويُستغاث بها، وتُذبح لها الذبائح، وتُقدّم لها النـذور والقـرابين؟! وهل ذلك إلا الضلال بعينه؟ يقول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللَّـهِ مَـا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّـهِ قُـلْ أَتُنَبِّئُـونَ اللَّـهَ بِـمَا لاَ يَعْلَـمُ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَـمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، ويقول جل وعلا: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْـتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ مَـا أَنزَلَ اللَّـهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّـهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلاَّ إِيَّـاهُ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

مظاهر الشرك

الشرك بالله تعالى من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر الموجبة للنار وبئس القرار، وإنه لم يرد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مثلما ورد في التحذير من الشرك بالله، والكفر به، وعبادة غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣٠-٣١]، ويقول الرسول الأعظم ﷺ: « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ -ثَلاَثًا- الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ...»(١)، ويقول أيضاً: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قالوا : يا رسول الله؛ وما هن ؟ قَال : « الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ...» الحديث(٢)، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي لا يسع المجال لذكرها والإحاطة بها.

ومن خلال تتبّع الآيات والأحاديث الواردة في ذكر الشرك والتحذير منه نجد أن للشرك مظاهر وصوراً مختلفة، وهي على ثلاثة أقسام:

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي بكرة .

(٢) تمام الحديث: «..وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ»، رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبوداود وابن حبان عن أبي هريرة .

القسم الأول: الشرك الأكبر:

والشرك الأكبر هو الشرك المحض الذي يلزم منه الكفر بالدين والخروج من الملّة واستحقاق عذاب الله تعالى ونقمته، وهذا النوع من الشرك لا ينفع معه عمل، ولا تقبل لصاحبه توبة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، ومن مظاهر هذا النوع من الشرك ما يلي:

١ – عبادة غير الله:

وذلك بالسجود والخضوع، وتخصيص أي مخلوق من المخلوقات بشيء من الطاعات والقربات التي لا تكون إلا لله تعالى، كالدعاء، والاستغاثة، والنذر، والذبح، ونحو ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢].

٢- ادعاء شركاء لله يشاركونه في ألوهيته، أو فعله، أو صفته، أو حكمه:

- **مثال ادعاء شركاء لله في ألوهيته:** تثليث النصارى، وهو قولهم: إن الآلهة- أوالإله- ثلاثة: الله، وعيسى، وروح القدس، قال تعالى: ﴿**يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً**﴾ [النساء:١٧١].

- **مثال ادعاء شركاء لله في فعله:** اعتقاد المشركين في أصنامهم، واعتقاد الصابئين في الملائكة أو في الكواكب أنها مصدر الخير، وأن منها النفع والضر، والرزق والنصر، وما إلى ذلك. وقد حاججهم القرآن الكريم بإبطال اعتقادهم، حيث يقول الله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾ [يونس:١٨]، ويقول تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ* إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ..**﴾ إلى قوله: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ**﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٧]،

ويقول جل وعلا: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَكُمْ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ* أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك:٢٠-٢١].

- **مثال ادعاء شركاء لله في صفته:** اعتقاد النصارى في المسيح صلوات الله عليه أنه قديم، بمعنى أنه موجود قبل خلق العالم، واعتقادهم فيه أنه لا يفنى ولا يزول، وأن له قدرة تضاهي قدرة الله عز وجل في الخلق والإيجاد، والإماتة والإحياء، ونحو ذلك.

- **مثال الإشراك بالله في حكمه:** اتباع اليهود والنصارى لأحبارهم ورهبانهم في تحليل ما أحلوا وتحريم ما حرموا، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، أي أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما تطاع الأرباب في أوامرهم .

ويدل ذلك على أن اتباع الغير فيما فيه مخالفة للشرع مما علم ضرورة في دين الإسلام أنه محرم- كما هو حال بعض الدساتير والتشريعات الوضعية التي تحلّل ما حرم الله، كتحليل الخمور تحت مسمى المشروبات الروحية، وإباحة التعامل بالربا تحت مسمى الفائدة، ونحو ذلك، وتحرّم ما أحل الله، كتحريم الزواج بأكثر من زوجة ونحو ذلك، وتحكم بغير ما أنزل الله، كما هو الحال في إسقاط الحدود ونحو ذلك- فإن كل ذلك يعد كفراً بالدين وشركاً بالله تعالى في حكمه وتشريعه، قال تعالى: ﴿إِنْ الحُكْمُ إِلاَّ

لِلَّـهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ﴾ [يوسف:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُـمْ بِـمَا أَنزَلَ اللَّـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ..﴾ إلى أن يقول سبحانه وتعـالى: ﴿أَفَحُكْـمَ الْجَاهِلِيَّـةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّـهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٤٤-٥٠]، ويقول جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَـاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْـكَ صُـدُودًا﴾ إلى قولـه تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُـمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِـهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٠-٦٥].

٣- **وصف الله تعالى بصفات المخلوقين**: على نحو وصـف اليهـود لـرب العـزة تبارك وتعالى بالحاجة والفقر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّـهُ قَوْلَ الَّـذِينَ قَـالُوا إِنَّ اللَّـــهَ فَقِـيرٌ وَنَحْـنُ أَغْنِيَـاءُ سَـنَكْتُبُ مَـا قَـالُوا وَقَـتْلَهُمْ الأَنْبِيَـاءَ بِغَـيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١٨١]، أو وصفهم له سبحانه وتعالى بالبخل كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّـــهِ مَغْلُولَـةٌ غُلَّـتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُـوا بِـمَا قَـالُوا بَـلْ يَـدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

٤- **نسبة الزوجة والولد إلى الله سبحانه وتعالى**: كما هو حال النصارى في ادعائهم بأن المسيح ابن الله، أو اليهود في ادعائهم أن عزير ابن الله، أو مشركي العرب في ادعائهم أن الملائكة بنات الله ونحو ذلك. قـال تعـالى: ﴿وَقَالَـتْ الْيَهُـودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ وَقَالَتْ النَّصَـارَى الْمَسِيحُ ابْـنُ اللَّـــهِ ذَلِـكَ قَـوْلُهُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّـهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠].

ومعنى يضاهئون قول الذين كفروا : أي يشاكلون المشركين وأهل الكفر ويشابهونهم في الشرك بالله والكفر به، قال تعالى- في حكايته عن المشركين وتنزيهه سبحانه عما وصفوه به ونسبوه إليه: **﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام:١٠٠-١٠١].

القسم الثاني: الشرك الأصغر:

وهذا النوع من الشرك يسمى الشرك الخفي، وهو لا يُخرج المسلم من الملّة، ولا يصح نسبة من يفعله إلى الشرك، بمعنى أنه لا يُحكم على من يفعله بالشرك والردة، غير أن هذا النوع من الشرك يوجب الإثم، ويحبط العمل، ويورث النفاق، ومن أنواع الشرك الأصغر ما يلي:

١- **الرياء**: وهو أن يفعل الإنسان الطاعة أو يترك معصية مريداً بذلك حصول شرف في الدنيا بثناء أو غيره، وسواءً أراد مع ذلك التقرب إلى الله تعالى أم لا [1].

وقد ورد ذكر الرياء في القرآن الكريم بلفظه ومعناه ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّـهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى**

---

(١)عن كتاب (تكملة الأحكام) للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى – الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، مؤسسة الإمام زيد.

يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّـهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢]، وقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾** [الماعون:٦-٧].

وورد ذكر الرياء بلفظ الشرك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** [الكهف:١١٠]، ومنه أيضاً ما ورد بصيغة الخطاب للنبي ﷺ، كما في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾** [الزمر:٦٥]، فالظاهر -والله أعلم- أن النهي الوارد في هذه الآية ونحوها إنما يقصد به تحذير النبي ﷺ من أن يميل إلى الدنيا، فيبتغي بدعوته الناس إلى الحق حصول منفعة دنيوية، من شرف، أوجاه، أوثناء، أونحو ذلك، ولا يعني ذلك نهي النبي ﷺ عن الشرك بالله الذي هو بمعنى الكفر بالله أو عبادة غير الله أو نحو ذلك، لأنه ﷺ معصوم عن مثل ذلك، وقد يكون الخطاب للنبي ﷺ والمقصود به غيره. والله أعلم.

٢- الحلف بغير الله:

وهو من الكبائر الموجبة للإثم، وقد أخبر عنه النبي ﷺ أنه شرك، فقال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّـهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١)، وذلك لأن الحلف بالشيء تعظيم له والتعظيم لا يكون إلا لله تعالى، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّـهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّـهِ أَوْ

(١) رواه أحمد والترمذي والطبراني والحاكم والبيهقي عن عبدالله بن عمر .

لِيَصْمُتْ»[1] . ويقول أيضا: « لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلاَ بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلاَ بِالأَنْدَادِ، وَلاَ تَحْلِفُوا إِلاَّ بِاللَّـهِ، وَلاَ تَحْلِفُوا بِاللَّـهِ إِلاَّ وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ »[2] .

٣- استحلال المحرمات:

فمن استحل محرماً من المحرمات مما علم ضرورة في دين الله أنه محرّم كالزنا، والربا، والخمر، ونحو ذلك، فقد دخل في الشرك، وتلبّس بـالكفر، ويـدل عـلى ذلك قول الرسول ﷺ: « مُدْمِنُ الخَمْـرِ إن مـات لَقِـيَ اللَّـــهَ كعابـدِ وَثَـن»[3] ، وقوله ﷺ: « لاَ يَزْنِي الْمُؤْمِنُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِـقُ وَهُـوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً حِـينَ يَنْتَهِبُهَـا وَهُوَ مُؤْمِنٌ »[4] .

والمستحل للمحرَّم مما هو معلوم تحريمه في الدين بالضرورة على حالين:

الأول: إذا كان مستحلاًّ للمحرّم مرتكباً له، غير أنه لا يجـاهر بفعلـه، وهـذا حكمه عند الله حكم الكافر، لا يقبل الله منه عملا حتى يقلع عن معصيته، فـإن مات وهو على هذه الحال مات على الكفر، غير أنه لا يحكم عليه بشرك ولا ردّة، وحسابه على الله.

---

(١) رواه أبوداود والنسائي وابن حبان وأبويعلى عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبدالله بن عمر .

(٣) رواه أحمد عن ابن عباس، وابن ماجة عن أبي هريرة بلفظ :"مدمن الخمر كعابد وثن" .

(٤) رواه أحمد والنسائي والبخاري ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة.. ونفي الإيمان في هذا الحديث لا يدل على الشرـك بل يدل على كفر النعمة، وهذا من الأدلة الدالة على وجود منزلة بين المنزلتين. تمت من تعليق بقلم الأستاذ العلامة عبدالرحمن أبوطالب .

الحال الثاني: أن يكـون مسـتحلاً للمحـرّم، مرتكـب لـه، مجـاهر بفعلـه واستحلاله، فلا شك في كفر من هذا شأنه كفراً يخرجه عن الملّـة، وعـلى الإمـام محاكمته وإجراء حد الردة عليه إن لم يتب ويرجع عن قوله وفعله.

القسم الثالث: ما يكون ظاهره الشرك ومرده على النيّة والقصد :

ومن أمثلة ذلك:

١ - التبرّك بالقبور والتوسّل بالأولياء والصالحين:

فإن من يفعل ذلك إن قصد أن لصـاحب القـبر أو صـاحب الولايـة قـدرة تضاهي قدرة الله تعالى في شفاء المرضى، أو إعطائه الولـد، أو تحقيـق مـراده مـن نصر، أو نجاح، أو ربح في تجارة، أو نحو ذلك، معتقداً في نفس الوقـت تعظـيم صاحب القبر أو الولي واستشعار إحاطة علمه بدعائه وتوسله، فهذا النوع داخل في الشرك المنهي عنه شرعاً، وإن كان الأمر يقتصر على التماس البركة في نبي مـن أنبياء الله، أو ولي من أوليائه- حياً كان أو ميتاً- مع الاعتقاد أن المعطـي هـو الله، وأن المانع هو الله، وأن النفع والضر والشفاء إنما هو من الله، فلا يدخل ذلـك في الشرك، ولا يجوز نسبة من هـذا حالـه إلى الشرك، عمـلاً بالظـاهر، والله يتولى السرائر.

٢- الذبح لغير الله:

لا نعتقد أن هناك من المسلمين اليوم من يذبح لغير الله على النحو الذي كـان عليه المشركون في ذبحهم لأصنامهم، غير أنه قد جرت العادة بذبح الـذبائح في مواطن لم يرد في الشرع ما يدل على جوازه، ومن ذلك الذبائح التـي تـذبح عنـد القبور، أو التي تذبح في مناسبات وعادات وتقاليد موروثة، كما هي عـادة أهـل اليمن في الهَجَر ونحوه .

وفي اعتقادنـا أن مثـل هـذا النـوع مـن الـذبائح - وإن كانـت بـدعاً غـير مستحسنة- إلا أن الظاهر فيها أنها ليست من الشرك المنهـي عنـه، لأنهـم حـين يذبحون الذبيحة يوجهونها نحو القبلة، ويذكرون اسم الله عليهـا، ولم نعلـم أن أحداً ذبح ذبيحة عند قبر الولي الفلاني فوجهها نحو القـبر، أو ذكـر اسـم الـولي عليها، وهذا يعني وجوب حسن الظن فيمن يذبحون هذه الـذبائح باعتبـار أن مثل هذا الفعل جائز ما دامت قد توافرت في الذبيحة الشروط المعتـبرة شرعـاً، ومعلوم أن من يذبح الذبيحة عند القبر لا يقصد من ذلك الذبحَ لغير الله كما هو حال المشركين الذين يقـدمون القـرابين لأصـنامهم، والفـرق في ذلـك واضـح والبون شاسع؛ لأن الذبيحة عند القبر لا يقصد بهـا الـذبح للضريـح وأحجـار القبر، أو حتى للجثّة المدفونة تحت التراب، وإنما يقصد بـذلك في الغالـب ذبـح الذبيحة، وتوزيع لحمها صدقة عـلى الفقـراء والمسـاكين، وإهـداء ثـواب ذلـك لصاحب القبر، وهذا العمل هو من باب إهداء ثواب الصدقة للميت، وهو ممـا

لا خلاف في جوازه[1].

٣- النذر لغير الله:

النذر المشروع هو ما كان لله عز وجل بـما شرع مـن الطاعـات والعبـادات، وهذا النوع من النذر يجب الوفاء به، لقوله تعالى: ﴿**وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ**﴾ [الحج:٢٩].

وأما النذر غير المشروع فهو ما كان بغير المشروع كأن ينذر شخص على نفسه بالبقاء في الشمس طوال النهار مثلاً، أو أن يحمل صخرة كبيرة، أو نحو ذلك، أو ما كان لغير الله عز وجل سواء كان بالمشروع أو بغير المشروع كالنـذر للأصـنام والأوثان والطواغيت ونحو ذلك. وهذا النوع من النذر لا يجب الوفاء به، غـير أنه إن كان النذر لله تعالى بغير المشروع فإنه لا إثم فيه ولا يجـب الوفـاء بـه، وإن كان النذر لغير الله تعالى فهو من الشرك المحض، سـواء كـان بالمشـروع أو بغـير المشروع، وهذا لا خلاف فيه.

وقد وقع الإشكال فيما ينذر به بعض العوام للأولياء والأموات من المؤمنين، وذهب بعضهم إلى أن هذا النوع من النذر يدخل في الشرك لأنـه نـذر لغـير الله، والحق أن ما يتقرب به المسلمون من النذور إلى أشخاص من أهل الإيمان -أحياء كانوا أو أمواتاً- هي في الغالب من نـذور الصـدقات، فهـو في الحقيقـة نـذر لله تعالى، وإنما أراد الناذر بقوله: نذرت للخمسة أهل الكسـاء- مـثلاً- بكـذا. أو نذرت لفلان، أو للولي الفلاني، أو العالم الفلاني، بكذا. إنما مـراده مـن ذلـك أن

---

(١) راجع كتابنا: رفع الإشكال عما يصل إلى الميت من ثواب الأعمال.

يتصدق بما نذر به، أو أن يفعل ذلك العمل ثم يهدي ثواب تلك الصدقة أو ذلك العمل لمن وقع النذر لأجله، وهذا إنما هو من باب إهداء الثواب للغير حياً كـان أو ميّتاً ولا خلاف في جوازه، والله أعلم.

٤- الاستعانة بالخلق في قضاء الحوائج واعتقاد النفع والضرر منهم:

لا شك بأننا مأمورون شرعاً بالتوكل على الله والاستعانة به، والاعتقـاد بـأن النفع والضر إنما هو من الله تعالى، غير أننا مأمورون كذلك بالأخـذ بالأسـباب لجلب المنافع ودفع المضار، مما يعني أن الاستعانة بالخلق والاعتماد على الأسباب لجلب منفعة ودفع مضرة لا يعد إثماً ولا معصية، لأن الشـفاء لا يـأتي إلا نتيجـة الاحتماء والتداوي، والرزق لا يأتي إلا نتيجة السعي والعمل. .وهكذا، غـير أن بعض أهل العلم قد توسعوا في ذكر الأمور التي تعد من الشرك، أو يعـد فعلهـا وقولها ردة عن الإسلام، وعدوا من ذلك: الاسـتعانة بغـير الله، واعتقـاد النفـع والضر من غير الله، ومحبّة الإنسان لشيء أعظم من محبته لله، وغير ذلك.

ولا شك أن اعتبار مثل هذه الأمور من الشرك والردّة عن الإسلام دون الأخـذ في الاعتبار النيّات والمقاصد يعد من الغلو في الدين الذي ما أنزل الله به من سلطان، لأننـا نعلم أن الإنسان المؤمن لا يخرج من الدين لمجرد قول أو فعل مهما كان، لأن النبي ﷺ يقول: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ اِمْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، ثم إن النبي ﷺ ذكر الرجـل الذي وجد راحلته بعد أن فقدها وآيس من رجوعها فقال: (اللهـم أنـت عبـدي وأنـا

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجةوالنسائي وأبوداود عن عمر .

ربك)، قال ﷺ: «أخطأ من شدة الفرح»[1].

لذلك فإن من الواجب على أهل العلم التفصيل في المسألة، إذ ليس مجرد قول الإنسان: أنا معتمد عليك يا فلان في أن تفعل كذا وكذا، أو: قد استعنت بفلان لقضاء حاجتي. أو: ما ضرني إلا كذا. أو: لن ينفعني إلا فلان. أو نحو ذلك، يعدّ شركاً ولا ردة عن الإسلام، لأن ذلك إنما هو من باب الأخذ بالأسباب وإرجاع الأشياء إلى عللها وأسبابها؛ لأن الناس مسخّرون بعضهم لبعض، فإذا استعان الإنسان بغيره لقضاء حاجته فلا يعتبر ذلك في مقام الاستعانة والتوكل على غير الله، ولا يعد ذلك مخالفاً للحديث الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» لأن المراد هنا أن من واجب الإنسان المؤمن أن يوكل نجاح أموره إلى مشيئة الله وقدرته، لا أن يعتقد بالأسباب وحدها، أو يعلّق أمله عليها؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الإنسان:٣١]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، وبالتالي لا يعد ذلك شركاً إلا إذا اعتقد الإنسان أن التأثير كله هو تأثير الأسباب، وأن مشيئة الله لا تأثير لها البتة في تحقيق الأمر المطلوب ونجاحه.

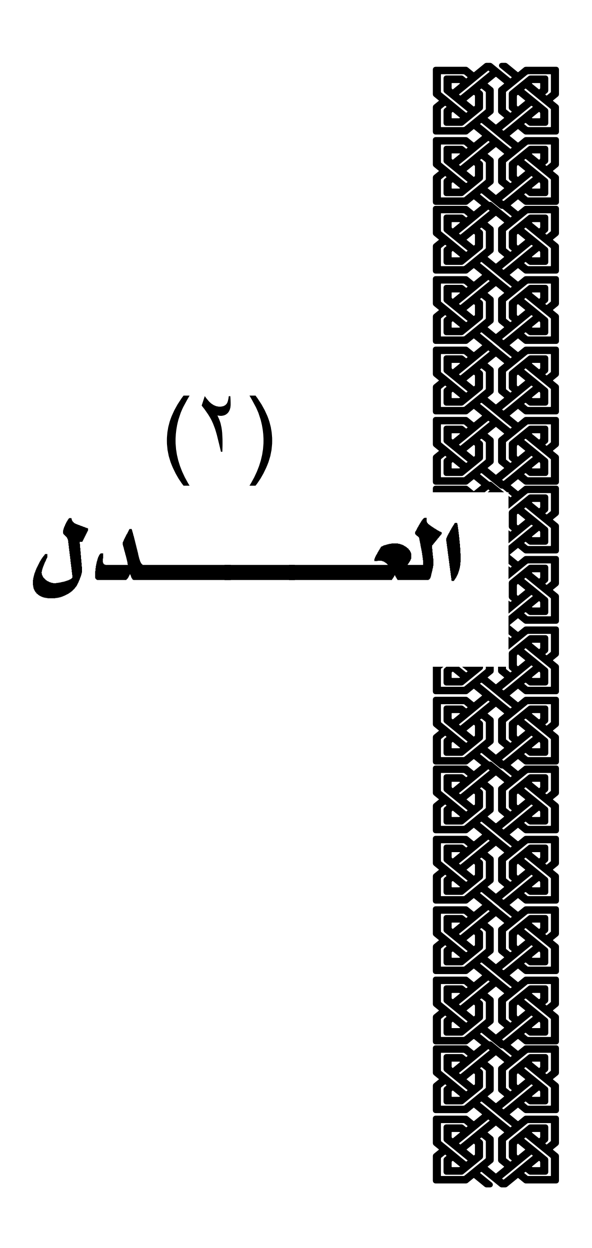
وكذلك الأمر فيما يتعلق باعتقاد النفع والضر من إنسان أو من غيره فإن ذلك أيضاً لا يعتبر شركاً ولا ردة لأن الله سبحانه وتعالى أقدر المخلوقات على

---

(١) لفظ الحديث: " للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ، مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ". رواه البخاري ومسلم عن أنس وعبدالله بن مسعود .

النفع والضر، فالريح تنفع وتضر، والشمس تنفع وتضر، والمطر ينفع ويضر، والنار تنفع وتضر، والإنس، والجن، والوحوش، والطيور، والدواب، والأنعام، تنفع وتضر؛ فإذا اعتقد الإنسان أن مقاربته للثعبان سيضره، أو أن شُربه للدواء سينفعه، فإن ذلك لا يعد شركاً ولا كفراً؛ غير أن من الواجب على المؤمن أن يعلم أن نفع هذه الأشياء وضررها لا يكون إلا بإرادة الله تعالى وحده إذ أقدرها على ذلك، ولولا ما منحها سبحانه من القدرة على ذلك لما حصل منها نفع ولا ضرر، ولو شاء الله تعالى أن لا يضر الإنسان ضارّ لكان الله عز وجل قديراً على ذلك قال تعالى: ﴿**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة:٥١]، ويقول تبارك وتعالى في معرض الحديث عن هاروت وماروت: ﴿..**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١٠٢].

ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى أمثلة لدفع ضرر الأشياء وإبطال تأثيرها عن أنبيائه وأوليائه ومن ذلك ما أخبر به تبارك وتعالى عن نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما أفضل الصلاة والسلام حيث يقول الله تعالى: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ**﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠].



(٢)
العـــــــدل

العدل الحكيم

من الصفات التي نصف بها الله سبحانه وتعالى أنه عـدل حكـيم، وتتضـمن هذه العبارة وصف الله تعالى بصفتي العدل والحكمة، ويقصد بـذلك أن أفعـال الله سبحانه وتعالى كلها حسنة وأنه ليس في أفعالـه شيء مـن القـبح ولا الظلـم ولا العبث .

ومعنى ذلك أن خلق الله للإنسان، وتكليفه بالتكاليف الشرـعية، ومجازاتـه عليها بما أعد له من الجزاء في الآخرة، كل ذلك وغـيره مـن أفعـال الله تعـالى في الكون والإنسان لا شك أنها أفعال حسنة لـيس فيهـا شيء مـن القـبح، لأن الله سبحانه وتعالى عالم بقبح القبيح ومستغنٍ عنه، وعالم باستغنائه عنه، فهو سبحانه لا يفعل القبيح، كما أنه لا يريده، ولا يرضاه، ولا يأمر به، ويلزم من ذلـك نفـي القبائح عن الله تعالى وتنزيهه عنها، والتي منها:

١- الظلم:

مامن شك أن الله سبحانه وتعالى مهيمن على خلقه، يفعـل فـيهم مـا يشـاء، ويقضي فيهم بما يريد، ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾[الأنبياء:٢٣]، غـير أن الله سبحانه وتعالى لايتصرف في عباده تصرف الملوك في ممـالكهم، لأن الله سـبحانه

وتعالى سمى نفسه العدل، ووصف تعالى نفسه أنه أحكم الحاكمين، وأخبر تعالى عن نفسه أنه يقضي بالعدل، قال تعالى : ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾[النمل:٧٨]، وقال تعالى ﴿**وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[غافر:٢٠]، وأخبر رب العزة تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن قضاءه هو الحق المطلق الذي لا ظلم فيه ولا جور، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[يونس:٥٤]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[يونس:٤٤]، وقال تعالى: ﴿**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[التوبة:٧٠]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ**﴾[غافر:٣١]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[فصلت:٤٦]، وقال تعالى : ﴿**وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[الكهف:٤٩]، وفي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل: يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَالَمُوا »(١).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمر عباده بالعدل وحثهم عليه، ونهاهم عن الظلم وحذرهم منه، فذلك دليل على أن الله تعالى مُنزّه عن الظلم، وأنه تعالى لا يريده، ولا يحبه، ولا يرضاه، مما يدل دلالة واضحة على مايلي:

١ – **<u>أن أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه ليس فيها شيء من الظلم</u>**، بدليل أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان ما لا يستطيع، قال تعالى: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ**

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي ذر.

أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[البقرة:٢٨٦]، ويقول تعالى: **﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾** [الطلاق:٧].

٢- **<u>أن الجزاء- في الدنيا أوفي الآخرة- إنما هو جزاء على العمل</u>**، فلا يقع على الناس عقاب من الله تعالى ولا ينزل عليهم عذاب في الدنيا أو في الآخرة إلا بسبب كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾**[هود:١١٧]، وقال جلّ وعلا: **﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾**[القصص:٥٩]، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: **﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[النمل:٨٩-٩٠]، وقال تعالى: **﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[يس:٥٣-٥٤]، ونحو ذلك من الآيات.

٣- **<u>أن الأضرار النازلة على المؤمنين في الدنيا من مصائب وأمراض وآفات ونحوها ليس فيها شيء من الظلم</u>**؛ لأنه إما أن يكون فيها دفع ضرر أكبر، أو يكون فيها تعجيل عقوبة في الدنيا، فيسلم المؤمن بذلك من عقوبة الآخرة وهي أشد وأضر، ثم إن المؤمن إلى جانب ذلك ينال الأجر الجزيل جزاء

صبره عليها، لأن الله سبحانه وتعالى عدل، ومن عدل الله تعالى أن يعوض المؤمن عن مصائب الدنيا وبلائها بمضاعفة أجره وحسناته، وهو ما أشار إليه رب العزة تبارك وتعالى في قوله وهو أصدق القائلين: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ**﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧]، ويقول الرسول ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى- شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا - إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا »[1].

٢- العبث:

قد تخفى على كثير من الخلق الحكمة والمصلحة في بعض أفعال الله تعالى وأوامره ونواهيه، فيتصور الإنسان أنه ليس فيها شيء من الحكمة والمصلحة، وهذا منافٍ لما نعلمه من أن الله سبحانه وتعالى حكيم، لذلك جاءت الآيات القرآنية تؤكد أن كل ما في الكون مخلوق لحكمة، وأن كل ما أوجده الله سبحانه وتعالى إنما أوجده لمصلحة، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ**﴾[ص:٢٧] .

ومعنى ذلك أن أفعال الله سبحانه وتعالى وأوامره ونواهيه منوطة بالحكمة والمصلحة، فكل فعل من أفعال الله تعالى، وكل أمر من أوامره ونواهيه، لا تخلو

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن عبدالله بن مسعود .

من حكمة، إذ أنه لا مجال في الكـون للباطـل، ولا محـل فيـه للعبـث بحـال مـن الأحوال، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[الدخان:٣٨-٣٩]، فالكون كلـه قـائم على أساس العدل والحق والنظام والإحكام، ولا يوجد جزء واحد مـن أجزائـه خلواً من فائدة مقصودة أو حكمة متوخاة فيه، فالزلازل، والبراكين، والمصائب، والآلام، والمـرض، والمـوت، ومـا خلـق الله سـبحانه وتعـالى مـن حشرـات، ووحوش، وسباع، ودواب، وأنعام، ومـا شرع الله سـبحانه وتعـالى مـن شرائـع وتكليفات، كل ذلك وغيره إنما وجد لحكمة، وإن كانت الحكمة والمصـلحة مـن ذلك قد تخفى في كثير من الأحوال على المكلفين، فإنما هو بسبب عقولهم القاصرة عن إدراك ذلك، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[الإسراء:٨٥].

فقد يتصور الإنسان أنه بما منحه الله من عقل وقوة إدراك قادر على الإحاطـة بعلم الأشياء وحقائقها، فيتساءل عن الحكمة من خلق الأشياء، ويتسـاءل عـن الحكمة من الأوامر والنواهي والتشريعات الربانية، وقد يعترض الإنسان أحيانا على الكثير من تلك الأمور، لكنه ما يلبث مع مرور السنين، ومـع تقـدم العلـوم وتطور وسائل المعرفة، وبعد أن يكون قد جرب ما توصل إليه بعقله وحكم بـه هواه، إلا أن يقول ما قالت الملائكة: ﴿**سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[البقرة:٣٢]، وصدق الله العظيم القائل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ .

العدل الإلهي

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان واستخلفه في هذه الأرض لإحيائها وعمارتها، وهذه الخلافة هي الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان وتشرف بحملها على سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[الأحزاب:٧٢] .

وقد شاءت إرادة الله واقتضت مشيئته أن تكون هذه الحياة مسرح ابتلاء واختبار لبني الإنسان، قال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾[الملك:٢].

ولقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، لإصلاح الناس وهدايتهم وتعريفهم بما يجب عليهم نحو خالقهم، وأخبرنا رب العزة تبارك وتعالى بواسطة رسله أن أحوال الناس مختلفة، وأن بعد هذه الحياة القصيرة حياة أخرى دائمة إما في النعيم المقيم أو في العذاب الأليم، وأن ذلك إنما يكون جزاء أعمالهم في هذه الحياة فمن آمن بالله وأطاعه واتبع أوامره واجتنب نواهيه فقد استحق من الله أن يدخله الجنة ويخلده في النعيم المقيم الذي لا يزول، ومن كفر بالله تعالى وعصاه وتعدى

حدوده فقد استحق من الله أن يدخله نار جهنم ويخلده في العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ* جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾[البينة:٦-٨]، **ويقول تعالى**: ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[الحج:١٩-٢٣] .

فإذا كان دخول الجنة والخلود فيها جزاء الإيمان والعمل الصالح، ودخول النار والخلود فيها جزاء الكفر والعمل السيئ القبيح، فإن ذلك الجزاء لا بدّ وأن يكون قائماً على ميزان العدل والحكمة لأنه سبحانه وتعالى منزه عن الظلم، فحكمه لا يصدر إلا عن عدل، وأمره لا يصدر إلا عن حكمة، فالعدل الإلهي هو العدل المطلق الذي ليس فيه شيء من الظلم ولا الجور، ويعنى ذلك ما يلي:

١ - **أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب العاصي على معصيته إلا إذا بلغته الحجة:**

وذلك بسماع الأوامر والنواهي بواسطة رسول أو كتاب، قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[الإسراء:١٥]، أو بواسطة العقل والفطرة، وذلك فيما حكم العقل بقبحه كالسرقة والزنا، وقتل النفس، والاعتداء على الضعيف أواليتيم، أوأكل ماله، ونحو ذلك من المنكرات والفواحش التي يدركها الإنسان بفطرته، ويوصله عقله إلى معرفة قبحها، فإنه لاشك محاسب

عليها، ومجازى على فعلها، بدليل أن الله سبحانه وتعالى شنع على المشركين من أهل الفترة قتلهم لأولادهم ووأدهم لبناتهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنهم سيسألون عن ذلك ويجزون عليه، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾[الأنعام:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير:٨-٩].

٢- **<u>أن الله تعالى لا يُكلّف ما لا يطاق</u>**: بمعنى أن الله تعالى لا يكلف العبد فوق طاقته، ولا يؤاخذه بما ليس في استطاعته، وذلك لأن تكليف الإنسان بما لا يستطيع ثم معاقبته على عدم فعله ظلم، والله تعالى منزه عن الظلم، ولذلك نجد التشريع الإلهي يراعي في جميع أوامره ونواهيه قدرة الإنسان وطاقته، يقول الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، ويقول جل وعلا: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[الطلاق:٧]،ويقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦].

لذلك فإنه يسقط التكليف عن غير المستطيع، فالحج مثلاً لا يجب على غير المستطيع، والصوم يسقط وجوبه عن المريض، والمسافر، والشيخ الهرم، والمرأة الحامل أو المرضع التي تخشى على جنينها أو طفلها من الضرر نتيجة صومها، والجهاد كذلك لا يجب على المرأة، ولا على المريض، ولا ذوي العاهات، ومن رحمة الله تعالى على عباده أنه ما فرض عليهم الحج كل عام، ولا الصوم طوال السنة، ولا أوجب عليهم قيام الليل، ولا فرض عليهم ما لا يقدرون على فعله ولا القيام به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال جل

وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ومن ذلك استنتج علماء الأصول قاعدة أصولية في هذا الباب فقالوا: (المشقة تجلب التيسير).

٣- **أن الله تعالى لا يعذب الإنسان إلا بذنب، ولا يعاقبه إلا على معصية**: وذلك لأن من لا ذنب له لا يكون مستحقاً للعذاب فيكون تعذيبه ظلماً، والله تعالى منزه عن الظلم كما أسلفنا، ومن هنا فسّر أهل العلم قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا**﴾[الإسراء:٥٨]، على أن المراد بالقرية في الآية: القرية التي ظلم أهلها أنفسهم بالكفر والمعاصي، وذلك لأنه لا يصح أن ينزل الله العذاب إلا بسبب.

ومن يتتبع آيات الكتاب الحكيم فسيجد أنه ما نزل العذاب على أمة من الأمم إلا بسبب كفرها وطغيانها، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[هود:١١٧]، وقال جل وعلا: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾[هود: ١٣]، وأيما أمة من الأمم رجعت إلى حكم الله وشرعه والإيمان به إلاّ صرف الله عنها ما كان سيحل بها من العذاب لولم تتب وترجع، قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ [يونس:٩٨] .

ومن هنا ينبغي التفريق بين تعذيب الله للعباد وبين إنزال الضرر بهم، أما العذاب فيقصد به حصول ما يُكره مما توعّد الله به أهل الكفر والعصيان في كتبه المنزلة، أو على ألسنة الرسل والأنبياء، وأما إنزال الضرر بالعباد فهي أقدار قدّرها الله على عباده في الدنيا، تعم الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، والمكلف وغير المكلف، باعتبار أن هناك فرقاً بين ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة؛ إذ أنّ نعيم الآخرة لا يكون إلا لأهل الإيمان، وعذابها لا يكون إلا لأهل الكفر والعصيان.

وأما الدنيا فلا نعيمها نعيم، ولا عذابها عذاب؛ لأنها طبعت على الملذات والشهوات، كما طبعت على الأكدار والآلام والمنغّصات، وقد يقع فيها من الأضرار والمصائب كالزلازل، والبراكين، والمجاعات، والفيضانات، والأعاصير، ومن قسوة البرد وشدة الحر، ونحو ذلك مما يكون سببا في هلاك الحرث والنسل.

وليس وقوع تلك الأضرار والمصائب عذاباً في كل الأحوال، وإنما هي أقدار قدرها الله على الخلق في الدنيا، ولله في تقديرها حكمة، وذلك أن فيها بلاء للمؤمن، وتأديب للفاسق، وعقاب للكافر، قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة:١٥٥]، وقال تعالى في شأن الفاسقين: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[السجدة:٢١]، وقال جل وعلا في شأن الكفار والمشركين: ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا**

لَهُمْ مِنْ اللَّـهِ مِنْ وَاقٍ﴾[الرعد:٣٤] .

ولذلك كان من عدل الله وحكمته أن يثيب أهل الإيمان، ويعوضهم جزاء صبرهم على بلاء الدنيا وأكدارها، قال الله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ**﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: « مَا يُصِيبُ الْمُسلِمَ مِنْ نَصَب، وَلاَ وَصَب، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حَزن، وَلاَ أَذىً، وَلاَ غَمّ، حَتى الشوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلا كَفَّرَ اللَّـهِ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(١)، وقال ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلاَّ كَفَّرَ الله بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»(٢) .

وأما الأطفال ومن في حكمهم من غير المكلفين فقد يعوضهم الله تعالى عن مصائب الدنيا ونوائبها بأن يكونوا من أهل الجنة؛ وكذلك من مات من أطفال المشركين قبل التكليف فإنهم لا يعذبون بسبب كفر آبائهم، لأنه لا ذنب لهم ولا معصية حتى يعاقبون عليها ويعذبون بسببها، لأن تعذيبهم بالنار وخلودهم فيها منافٍ للعدل. والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن عبدالله بن مسعود.

(٣) أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجة عن جرير بن عبدالله.

٤- **أن الله لا يعذب أحداً إلا بذنبه:** بمعنى أن الإنسان لا يتحمّل إثم غيره، ولا يؤاخذ بها فعله سواه إلا إذا كان سبباً فيه، لقول الرسول ﷺ: «... وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »[٣] .

وأما ما لم يفعله الإنسان ولم يكن سبباً فيه فلا يؤاخذ عليه، وإنما يؤاخذ الإنسان على فعله، ويعاقب على معصيته، قال تعالى: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾[البقرة:٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[المدثر:٣٨]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[الأنعام:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى**﴾[النجم:٣٦-٤١] .

٥- **أن الله سبحانه وتعالى لا يجبر الإنسان على فعل معصية ثم يعاقبه على فعلها :** لأن ذلك ظلم والله منزه عن الظلم، فلو أن أستاذاً أمر بعض طلابه بالخروج للّعب، ثم عاقبهم على ذلك، لكان عقابه لهم من الظلم الفاحش؛ لأنهم إنما خرجوا تنفيذاً لأمره وتحقيقاً لمراده، وكذلك الأمر فيما يتعلق بمعاصي العباد، فإنه لا يصح أن يقال إنها من الله، بمعنى أن الله أجبر العباد على فعلها، أو أنه تعالى أرادها أو أمر بها، إذ لو كان الأمر كذلك لكان تعذيب الله للعاصين

على معاصيهم ظلماً تعالى الله عن ذلك[1].

٦- **أن الله سبحانه يجازي كل إنسان على فعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر:**

بمعنى أن الله تعالى سيجزي المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما أعد لهم من النعيم، وسيجزي الكفار والعاصين بما أعد لهم من العذاب في نار الجحيم، ولا يمكن بأي حال أن نتصور أن الله سيجازي المؤمنين بما يجازي به الكافرين، أو أنه سيجازي الكافرين بما يجازي به المؤمنين؛ لأن مجازاة المسيء بالفضل والإنعام لا يختلف عن مجازاة المحسن بالسوء والانتقام، فكلا الأمرين ظلم وجور، والله تعالى منزه عن ذلك، قال تعالى: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[القلم:٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[ص:٢٨]،وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[الجاثية:٢١].

(١) سنتناول هذه المسألة والتي بعدها بشيء من التفصيل فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

التحسين والتقبيح العقليان

ما من شك أن العقل هو أعظم حجج الله على الخلق بدليل أننا ما عرفنـا الله إلا بالعقل، ولا علمنا أن الأنبياء مرسلون من قبل الله تعالى إلا بالعقل، ولا آمنا بأن القرآن وسائر الكتب السماوية كلام الله أوحى بها إلى رسله وأنزلها على عباده إلا بالعقل، وبالعقل وحده عرفنا صدق الرسل، وقبلنا منهم ما أخبرونا بـه مـن أوامر ونواه وأمور غيبية، كالإخبار بالملائكة، وبالبعث، والنشـور، والحسـاب، وبالجنة والنار، ونحو ذلك .

لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى عنى بشـأن العقـل حيـث أشـار سـبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى أن فهم الأحكام التي أنزلهـا الله في كتابه، والاتعاظ بآيـات الكـون وعجائـب صـنعه لا يكـون إلا لأهـل التفكـر وأصحاب العقول، حيـث يقـول الله تعـالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـاتٍ لِأُولِي الأَلْبَـابِ**﴾[آل عمران:١٩٠]، ويقـول تعـالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[يوسف:١١١]، ويقول تعالى: ﴿**أَفَمَـنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّـمَا يَتَـذَكَّرُ أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ**﴾ [الرعد:١٩]، ويقول تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّـمَا يَتَـذَكَّرُ أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ**﴾[الزمر:٩]، ويقـول تعـالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ**

يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٤]، ونحو ذلك من الآيات.

وبالمقابل نجد أن الله سبحانه وتعالى شنع على أهل الكفر والعناد الذين قلدوا آباءهم وعطلوا عقولهم، فأنزلهم منزلة الأنعام والبهائم، بل وجعلهم في درجة أضل منها وأسوأ، يقول الله تعالى: **﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾** [الفرقان:٤٤]، ويقول تعالى: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾** [الأنفال:٢٢-٢٣]، ويقول: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾**[الأعراف:١٧٩].

وبيّن سبحانه وتعالى في مواضع أخرى من القرآن أن تعطيل الفكر وعدم استعمال العقل سبب للخلود في النار، ونتيجة حتمية للكفر والضلال، يقول الله تعالى: **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾**[الملك:١٠-١١]، ويقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[البقرة:٦-٧]، ويقول جل وعلا: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**[البقرة:١٧٠-١٧١].

وإننا وأمام كل تلك النصوص القرآنية وغيرها الدالة على مكانة العقل وأهميته لا نتردد لحظة في أن نحكم بأن العقل هو الرسول الأول من الله تعالى إلى خلقه، بمعنى أن الإنسان مكلف شرعاً باستعمال العقل لمعرفة الله تعالى والإيمان به[1]، كما أنه مكلف شرعاً بترك ما يستقبحه العقل ويستهجنه، إذ ما من شك أن ما حسنه العقل فهو حسن، وما قبحه العقل فهو قبيح، ما لم يرد في الشرع ما يدل على خلاف ذلك، كما هو الحال في إباحة ذبح الأنعام[2]، " إذ ما من شك أننا ندرك بعقولنا حسن بعض الأشياء وقبح البعض الآخر، وإن لم تأت لنا آيات ولا أحاديث تبين لنا حسن تلك الأشياء ولا قبحها، أي أن العقل يدرك ذلك باستقلال عن الشرع.

فالعقل يعرف أن هناك أفعالاً قبيحة يحكم على فاعلها بالذم واستحقاق العقاب، وأن هناك أشياء حسنة يحكم على فاعلها بالمدح واستحقاق المكافأة على فعله، وهذه قضية يعرفها كل عاقل، حتى أن كل من لا يؤمن بالله ولا برسوله ولا بالكتاب ولا بالسنة من العقلاء يعرف أن الظلم قبيح، وأن من قتل الأطفال وأخاف النساء وأخذ الأموال بغير حق ظالم يستحق الذم والعقوبة على فعله، وأن من أحسن إلى الضعفاء والمساكين والأرامل وأغاث الملهوف والغريق فإنه يعتبر محسناً يستحق على فعله المدح والثناء والمكافأة "[3].

وإننا على يقين بأن الناس سيحشرون جميعاً من لدن آدم إلى آخر يوم من أيام

---

(١) راجع موضوع: (وجوب النظر والتفكر) في الفصل الثاني لكتاب التوحيد.

(٢) لأن العقل قد يحكم بقبح ذبح الأنعام، لأن فيه تعذيب وإزهاق روح، غير أنه لما جاء الشرع بإباحته دل ذلك على حسنه.

(٣) عن كتاب (نظرة وبيان في متشابه القرآن)، للأستاذ العلامة/ عبد المجيد الحوثي حفظه الله ص١١، ط/ دار التراث.

الدنيا، وأنه سيقف في عرصة القيامة يوم العرض الأكبر من بني آدم من لم تبلغه دعوة، ولا علم برسالة، ولا عرف من أمر الدين شيئاً، فكيف سيحاسب مثل هؤلاء، وكيف سيجزون على أفعالهم على نحو ما أخبر به تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾[الزلزلة:٦-٨]؟!

إنه ما من شك أن جميع الناس سيقفون يوم القيامة بين يدي الله، وسيحاسب كل إنسان على مثقال الذرة ويجازى عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأنه سبحانه وتعالى سيعذب أقواماً أشركوا بالله تعالى وعبدوا غير الله، وفعلوا المنكرات والمعاصي، وإن لم يكن قد أتتهم رسل، ولا بلغتهم دعوة، وليس في ذلك ظلم ولا جور؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد ركّب في الإنسان العقل الذي يهتدي به إلى معرفة خالقه، والإيمان بربه، وإدراك الحسن والقبيح من الأفعال والأقوال(١)، وهذا هو العهد والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم من قبل خلقهم، واحتج به عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ

(١) بدليل ما أخبر به تعالى من قصة إبراهيم (صلوات الله عليه وعلى آله) وهدايته إلى معرفة خالقه قبل أن ينزل عليه وحي أو يرسل إليه رسول، يقول الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي..) إلى قوله تعالى: (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام:٧٤-٧٩] . وقد ذكر أصحاب التواريخ والسير أن من أهل الفترة من توصل بعقله إلى الإيمان بالله والإيمان بالبعث والنشور، ومنهم قس بن ساعدة الأيادي وزيد بن عمرو بن نفيل، وقد سبق ذكر ماورد عن هما في قسم التوحيد، في درس النظر والتفكر.

الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٢-١٧٣].

ولا يتعارض ذلك بأي حال مع قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾**[الإسراء:١٥]، لأن الآية وردت في سياق الحديث عن التكليف الإلهي للإنسان، وذلك في قوله تعالى: **﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾**[الإسراء:١٣-١٥]، فالآية هنا دالة على ما ذهبنا إليه، وهو أن الإنسان مكلف شرعاً بالإيمان بالله وترك القبائح، من قتل، وظلم، وشرك، وزنا، وشهادة زور، ونحو ذلك، بدليل قوله تعالى: **﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** أي حمّلناه أمانة التكاليف الشرعية لا ينفك عنها حتى يحاسب عليها، ويدل على ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾** [الأحزاب:٧٢-٧٣].

فدل ذلك على أن الإنسان متحمّل للأمانة- وهي التكاليف الشرعية- ومحاسب عليها ومجزي بها، وبالتالي فالمشركون محاسبون على شركهم، ومجزيون على أعمالهم وما اقترفوه من قبائح وسيئات، غير أن الإنسان في زمن الفترة غير مخاطب شرعاً إلا بما توصل إليه اجتهاده بما يدل عليه نظر العقل وهداية الفطرة

في تحسين الشيء أو تقبيحه، فإن فعل ما دل عليه العقل أنه قبيح كعبادة الأصنام، وقتل النفس المحرمة، وسلب الأموال واغتصابها دون حق، وأكل مال اليتيم وقهره، وظلم الضعيف والمسكين وأخذ حقه، وغير ذلك من الفواحش والمنكرات، كالزنا، واللواط، وشهادة الزور، ونحوها، فهو آثم مستحق للنار والخلود فيها، بدليل أن الله سبحانه وتعالى شنع على أهل الجاهلية ومن كان منهم في زمن الفترة لقتلهم أولادهم خشية الفقر، ووأدهم بناتهم خشية العار، في حين أنه لم يكن قد أتاهم رسول ولا نزل عليهم كتاب، غير أنه لما كان هذا الفعل مما يستقبحه العقل وتأباه الفطرة السليمة استحق صاحبه عليه العذاب في الآخرة بدخول النار والخلود فيها، قال تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ [الأنعام:١٤٠]، والله تعالى أعلم.

الهدى والضلال

اقتضت مشيئة الله تعالى أن تمنح الإنسان حرية الفعل والاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن، وأن يعمل الصالحات أو يفعل المعاصي والسيئات، غير أن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن ظواهر بعض الآيات القرآنية قد تتناقض مع هذا المفهوم، وذلك في مثل الآيات التي توكل الهداية والضلال إلى المشيئة الإلهية كما في قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [النور:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾[الأنعام:١٢٥].

ونحو ذلك من الآيات أو الأحاديث التي توحي بأن ضلال الإنسان وهدايته متعلقة بميشيئة الله وإرادته، فمن شاء الله له أن يكون من أهل الإيمان والهداية فسيكون مؤمناً مهتدياً، ومن شاء الله له أن يكون من أهل الكفر والضلال فسيكون كافراً ضالاً، مما قد يجعلنا نتصور أن الكفر، والإيمان، والهدى، والضلال، من الأمور التي لا دخل للإنسان فيها، ولا حرية له فيها ولا اختيار.

وهذا لاشك مفهوم خاطئ واعتقاد فاسد، وذلك لأن الهُدى والضلال قد وردا في القرآن الكريم بألفاظ مختلفة وصور متعددة تدل في مجملها أن الإنسان مخيّر بين الأمرين، وله أن يختار ما شاء، قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[البلد:١٠]، وقال جل وعلا: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[الإنسان:٢-٣].

وقد دلت آيات القرآن الكريم على أن الهُدى والضلال ابتداء هو من الإنسان نفسه، فهو إن طلب الهداية منحه الله إياها ووفقه لها، وإن أعرض عن الهداية حجبه عنها وحرمه منها، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾[فصلت:١٧]،أي هديناهم بإرسال الرسول وإنزال الكتب فاختاروا الضلال والكفر على الهدى والإيمان.

فالهداية من الله ابتداءً إنما تكون بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهداية العقل إلى طريق الخير وطريق الشر، قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[الشورى:٥٢].

وأما الهداية التي بمعنى زيادة البصيرة وتنوير القلب بما يكون سبباً في اتباع

الحق واجتناب الضلال، فهـي لا تكـون إلا لمـن يسـتحقها مـن الأنبيـاء، ومـن اختصهم الله من عباده المؤمنين، قـال تعـالى: ﴿وَمَـنْ يُـؤْمِنْ بِاللَّــهِ يَهْـدِ قَلْبَـهُ﴾ [التغـابن:١١]، وقـال تعـالى: ﴿قُـلْ إِنَّ اللَّــهَ يُضِـلُّ مَـنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي إِلَيْـهِ مَـنْ أَنَابَ﴾[الرعد:٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[الكهف:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُـمْ هُـدًى وَآتَـاهُمْ تَقْـواهُمْ﴾[محمد:١٧]، وقـال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[يونس:٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّـهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الحج:٥٤].

وهذا النوع من الهداية محجوبة عمن لا يستحقها من أهل الكفـر والضـلال، وذوي الغـي والعصـيان، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّــهَ لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّـالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّـهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَـهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّـهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران:٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّـهُ لِيَغْفِرَ لَهُـمْ وَلاَ لِيَهْـدِيَهُمْ سَـبِيلاً﴾[النساء:١٣٧]، وقـال تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ كَفَـرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنْ اللَّـهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًـا * إِلاَّ طَرِيـقَ جَهَـنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّـهِ يَسِيرًا﴾[النساء:١٦٨-١٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ لاَ يَهْدِيهِمْ اللَّـهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النحل:١٠٤].

وحجب الهداية الواردة في الآيات المذكورة هنا وفي غيرها من الآيات يعنـي إهمال المعرضين عن الهداية، وحرمانهم من أنوار الإيمان، وبالتالي تركهم عرضـة لوساوس الشيطان، ووسوسة النفس الأمارة بالسوء، على نحو قـول الله تعـالى:

﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّـهُ وَمَا لَهُمْ مِـنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩]، أي من يهدي هؤلاء الذين أضلهم الله، وسلبهم التوفيق للهداية واتباع الحق، بسبب اتباعهم لأهوائهم وانقيادهم لشهواتهم؟

وعلى هذا المعنى ورد الإضلال منسوباً إلى الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بألفاظ مختلفة وصور متعددة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّـهُ الظَّالِمِينَ﴾[إبراهيم:]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِـهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[البقرة:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّـهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّـهُ لاَ يَهْدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّـهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[النساء:١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِـنْ قَبْـلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف:١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُـوبِهِمْ أَكِنَّـةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَـدًا﴾[الكهف:٥٧]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّـهُ أَرْكَسَـهُمْ بِـمَا كَسَـبُوا أَتُرِيـدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّـهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّـهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[النساء:٨٨].

فهذه الآيات وغيرها هي في مجملها تبين أن الضلال إنما هو متعلق بسببه وهو الكفر والعصيان، كما أن الهداية متعلقة بسببها وهو الصلاح والإيمان.

ومن هنا نعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما يمنح الهداية من يستحقها من أهل

الإيمان والصلاح، ويحجبها عمن لا يستحقها من أهل الكفر والضلال، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم:٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:١٦-١٧].

وعلى هذا فإنه لا يصح مطلقاً أن ينسب الضلال أو الإضلال إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو منبع الهداية ومصدر الخير، وحاشا الله تعالى أن يقود الناس إلى الضلال والكفر والعصيان ثم يعذبهم عليه وهو من سمى نفسه الرحمن الرحيم.

وإننا لنجد آيات الكتاب الحكيم ناطقة بفضل الله تعالى ورحمته بعباده ورأفته بهم، وهل هناك في هذا الوجود من هو أرأف بالخلق وأحرص على هدايتهم من إلههم وخالقهم؟! فما من شك أن الله سبحانه وتعالى ما بعث الأنبياء وأرسل الرسل وأنزل الكتب إلا لصلاح الناس وهدايتهم وإنقاذهم من الضلال والخسران، يقول الله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النساء:١٧٦]، ويقول تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٦-٢٨].

ولقد نفى القرآن الكريم أن يكون ضلال الناس وغوايتهم من الله تعالى، أو أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي يحجب عنهم الهداية أو يمنعهم منها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾[التوبة:١١٥].

وأشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى أسباب الغواية ومصادر الضلال، ونسب ذلك إلى شياطين الجن والإنس، أو إلى هوى النفس وشهواتها، أو إلى طغاة الأرض ومجرميها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٧-١١٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[ص:٨٢-٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾[طه:٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[الفرقان:٢٧-٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٦٧]، وقوله تعالى- على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[القصص:١٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾[الشعراء:٩٦-٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ

أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنْ الأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:٢٩]، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾**[الأنعام:١١٩]، وقال تعالى: **﴿قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾**[الملك:١٠].

وأما ما حكاه القرآن مما يدل ظاهره على نسبة الغواية إلى الله تعالى، وذلك في مثل قوله تعالى- في حكايته عن نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** [هود:٣٤]، فليس فيها ما يدل على أن الغواية هي من الله ابتداءً، بمعنى أن الله سلب قوم نوح الإرادة في الهداية والإيمان، أو أنهم كانوا مجبرين على معصية الله تعالى والكفر به، إذ لايبعد أن يكون المراد بالغواية الواردة في الآية على لسان نبي الله نوح أحد أمرين:

إمّا التخلية والترك؛ وهو أنه لما علم الله إصرارهم على الكفر تركهم وخلى بينهم وبين ماهم عليه من الكفر والضلال، فسمى ذلك غواية .

وإمّا الإهلاك بالعذاب؛ وهو أنه لما قضى الله عليهم أنهم إن اختاروا الكفر على الإيمان أهلكهم بالعذاب، فكأن قضاء الله عليهم بالإهلاك غواية لهم.

وكذلك ماورد في مثل قوله تعالى- في حكايته عن إبليس: **﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الحجر:٣٩]، وقوله تعالى: **﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾**[الأعراف: ١٧]، فليس في هذه الآيات وأمثالها كذلك ما يدل على أن الغواية هي من الله ابتداءً، ولا أن الله تعالى

سلب إبليس الإرادة في السجود لآدم، أو كان مجبراً على عصيان الله تعالى ومخالفة أمره، لعدة وجوه:

أولاً: أن الله سبحانه وتعالى أمره بالسجود، والأمر بالسجود تكليف، وذلك لأنه كان قادراً عليه وإلا لما أمره الله به، لأن تكليف المكلف بما لا يقدر على فعله ومجازاته على عدم الفعل ظلم، قال تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾[البقرة:٢٨٦] وإلا لكان حاله كما قال الشاعر:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له   إياكَ إياكَ أن تبتل بالماءِ

ثانياً: أن الغواية في الآية الكريمة وردت مرتين، فنسبت الغواية مرة إلى الله تعالى، وذلك في قول إبليس: ﴿**رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي**﴾، ومرة إلى إبليس،وذلك في قول إبليس: ﴿**وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾، ولا يصح أن يقال: إن غواية الله من جنس غواية إبليس، وإلا لكان الله مشاركاً لإبليس في صفة من صفاته- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثالثاً: أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر في مواضع كثيرة من القرآن أن إبليس لعنه الله رفض السجود لآدم بمحض إرادته واختياره، وذلك بسبب تكبره وغروره، وحسده لآدم عليه السلام لتفضيله عليه وتكريمه دونه، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ**﴾[البقرة:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا**

مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف:١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾[الإسراء: ٦٢] .

فدل ذلك على أن نسبة الغواية إلى الله تعالى إنما هو ادعاء من إبليس لعنه الله، وفي ذلك زيادة بيان لضلال إبليس وغوايته إذ نسب عصيانه لربه وتمرده على خالقه إلى الله تعالى، مع أنه كان الأولى به أن ينسب ذلك إلى نفسه، كما فعل أبونا آدم وأمنا حواء -عليهما السلام- قال تعالى: ﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ**﴾[الأعراف:٢٢-٢٣].

الجبر والاختيار

نشأت في المسلمين منذ قرون عقيدة الجبر التي تقوم على أساس أن كل ما يفعله الإنسان ليس من فعل الإنسان واختياره، وإنما هو من فعل الله تعالى ومشيئته، فكان نتيجة ذلك أن احتدم الصراع الفكري حول فاعل الفعل، هل هو الإنسان نفسه، أم هو الله عز وجل؟! بمعنى آخر: هل الإنسان مخيّر يفعل ما يشاء ويعمل ما يريد، أم أنه مسيّر بإرادة الله ومشيئته، بحيث لا يصدر عنه إلا ما أراده الله واختاره، وقضاه عليه وقدّره؟!

وسبب نشوء عقيدة الجبر وظهورها هو قصور الفهم لدى العامّة من المسلمين، حيث اعتقدوا أن مشيئة الله النافذة في خلقه نافذة في كل شيء، بما في ذلك أفعال الإنسان وتصرفاته، وأنها متعلقة بقدر الله عز وجل ومشيئته حتى لو كان ذلك هو الكفر أو فعل المعصية وارتكاب الفاحشة .

والحق يقال أن كل ما في الكون لا يحدث إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته، وقضاء الله وقدرته، قال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [الإنسان:٣٠]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾[الكهف:٢٣-٢٤]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ [يونس:٥٠]، إلا أن ذلك لا يعني أن الإنسان ورقة في مهب الريح، ولا يمكن أن نتصور أن الإنسان آلة تتحرك على مقتضى المشيئة الإلهية، كما تتحرك

الآلات بواسطة غيرها، وإلا لكانت أفعال الإنسان وحركاته وتصرفاته منسوبة إلى الله تعالى وليس إلى الإنسان؛ لأننا نعلم من واقع الحال أن السيارة إذا صدمت إنساناً، أواصطدمت في سيارة أخرى، أو في شيء مّا أصابته بالضرر، فإن السيارة لا تحبس ولا تعاقب، وإنما يقع العقاب على الشخص الذي يقودها، لأنه هوالذي يحركها إذا شاء أن تتحرك، ويوقفها إذا شاء أن تتوقف، ويوجهها حيث شاء أن تتوجه، فإذا ما أحدثت السيارة حادثاً فهو من فعل سائقها وتصرفه؛ لأنه لولا تحريكه لها لما تحركت، ولولا غفلته لما أحدثت ما أحدثت .

فهل يعقل أن ينسب إلى الله شيء من فعل الإنسان وحركاته وتصرفاته، كما ينسب فعل السيارة وإحداثها إلى سائق السيارة ومحركها ؟! بالطبع لا. لأن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان الحرية الكاملة في أن يفعل ما يشاء، وأقدره على أن يعمل ما يريد، فبمقدور الإنسان مثلاً أن يبني داراً كما أن بمقدوره أن يهدمها، وبمقدور الإنسان أن يسير إلى المسجد، ويمشي لقضاء حاجة إنسان، ويتحرك لإغاثة ملهوف، كما أنّ بمقدوره أن يمشي لأذية إنسان، ويتحرك لقتله وسرقة ماله، وبمقدور الإنسان أن يقتل إنساناً آخر، كما أنّ بمقدوره أن يحييه، بأن يفك أسره، أو يعفي عنه في قصاص، أو ينقذه من غرق أو حريق، ونحو ذلك.

وإننا مع ذلك لا ننكر أن أفعال الإنسان، وإيمانه وكفره، وعمله للصالحات، وفعله للسيئات، إنما هو بمشيئة الله تعالى وإرادته، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أقدر الإنسان على الإيمان والعمل الصالح كما أقدره على الكفر وعمل السيئات، ولولا ما قضاه الله وقدره على الإنسان أن يكون قادراً على ذلك لما كان بمقدوره

أن يفعل شيئاً من ذلك، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ**﴾ [الأنعام:١٣٧]، أي لو شاء الله أن لا يفعلوا ذلك، لما كان بمقدور الشياطين أن توسوس للمشركين أن يقتلوا أولادهم وتزين لهم هذا الفعل، ولو شاء الله تعالى أن لا يقتل المشركون أولادهم لمنعهم من ذلك، ولكن شاء الله أن يمنح الحرية والاختيار لهؤلاء في الإضلال والتزيين أو عدمه، وأقدر أولئك على أن يقتلوا أولادهم أو لا يقتلوهم.

ولقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى هذا المعنى في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[الأنعام:١٤٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**﴾[الشورى:٨]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[يونس:٩٩] .

فقد أشارت هذه الآيات إلى أن كفر الناس وضلالهم إنما كان بمشيئة الله وإرادته، وقضاء الله وقدره، وذلك بما منحهم من حرية الفعل والاختيار، ولو شاء الله أن يكونوا مؤمنين لخلقهم على صورة الملائكة ﴿**لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾، أو لأراهم من آياته وتجلياته ما يجعلهم مسلمين خاضعين، لا يستطيعون كفراً ولا عصياناً، قال تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾[الشعراء:٣-٤].

حرية الإنسان واختياره

هناك أمور تحدث وتتم بمحض قدرة الله تعالى ووفق مشيئته، وهـي تنفـذ في الناس طوعاً أو كرهاً، كالطول والقِصَر، والسواد والبيـاض، والقـبح والجـمال، ونحو ذلك، ومثل هذه الأمور ليست محل مؤاخذة، ولا موضع حساب .

وبالمقابل فإن هناك أموراً أخرى يشعر الإنسان أنه مسئول عنها، ومؤاخـذ عليهـا، وذلك لأنها صادرة منه بإرادته واختياره، وهي الأعمال التي يتعلق بها الأمـر والنهـي، والوعد والوعيد، ويترتب عليها الثواب والعقاب، والمدح والذم .

وقـد اقتضـت مشـيئة الله تعـالى وحكمتـه أن يكـون الإنسـان حـراً مختـاراً تجـاه التكاليف التي كلفه الله بها، في الوقت الذي خلـق للإنسـان العقـل الـذي يميّـز بـه الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والخير من الشر، والهدى من الضلال، فهـو إن شاء اتبع طريق الخير والحق والهدى، وإن شاء اختـار طريـق الشرـ والضـلال، قـال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَـدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[الإنسان:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[البلد:٨-١٠]، أي طريق الخير وطريق الشر.

ولتأكيد حرية الإنسان واختياره جاءت الآيـات القرآنيـة تؤكـد هـذا المبـدأ وتؤيد هذا المفهوم، يقول الله تعالى: ﴿**وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ**

شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[النور:٥٤]، وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[النساء:٣٩]، وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ﴾[الانشقاق:٢٠-٢١].

وعموماً فإن القول بحرية الإنسان واختياره هو القول الذي تميل إليه الفطرة وتطمئن إليه النفس، وقد ذكرنا من الأدلة القرآنية ما فيه الكفاية، وبقي أن نشير هنا إلى بعض الأدلة العقلية التي ذكرها علماء الأصول، ونحن نوجزها في النقاط التالية:

أولاً: أنه لو لم يكن للإنسان اختيار في فعله لما صح التكليف المترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب، ولبطلت بالتالي حجة الله على الكافرين وأهل العصيان يوم الحساب.

ثانياً: أنه لو كان الإنسان مسيراً مجبراً على فعله لما كان هناك حاجة لإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولما كان لدعوة الناس إلى الدين، ولا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي فائدة.

ثالثاً: أن الله تعالى قد وجه أوامره ونواهيه إلى الإنسان المأمور بالفعل أوالترك،

وفي ذلك دليل على أنه هو الفاعل، وأنه مختار، إذ لو كان الإنسان مجبراً على الفعل لما صح أن تتوجه إليه تلك الأوامر والنواهي، كما لم يصح أن تتوجه إليه الأوامر والنواهي فيما ليس له فيه اختيار، ولا قدرة له على فعله أو دفعه، كما هو الحال في طول الإنسان وشكله و لون بشرته، ونحو ذلك ؛ لأن في ذلك مخاطبة للإنسان فيما لا اختيار له فيه، ولا يستطيع فعله، ولا قدرة له على تجنبه، فيكون الأمر والنهي في مثل هذه الحالة لغواً وعبثاً، والله تعالى منزه عن اللغو والعبث.

رابعاً: أنه يترتب على فعل الإنسان الثواب والعقاب، واللوم والعتاب، والذم والمدح، إيجاباً أو سلباً، فلو كان الإنسان مجبراً على الفعل لما صح تعلق ذلك بفعله، ولا صح أن يترتب عليه ثواب ولا عقاب، ولا مدح ولا ذم.

مثال ذلك: الآلة التي تسير وتتحرك بواسطة غيرها، فإنه بلا شك لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم، ولا يتعلق بفعلها ثواب ولا عقاب، وإنما يتعلق ذلك بالإنسان الذي يسيرها ويحركها، على نحو ما ذكرناه في السطور السابقة، في المثال الذي ذكرناه للسيارة وسائقها، بعكس فعل الإنسان، فإنه إنما ترتب عليه المدح والذم، وتعلق به الثواب والعقاب، لأنه من فعل الإنسان واختياره، ولو لم يكن من فعل الإنسان ولا اختياره، لما ترتب عليه شيء من ذلك؛ لأن مجازاة الإنسان على ما فعله دون اختياره ظلم، والله تعالى منزه عن ذلك، ولذلك فإن الإنسان غير مؤاخذ شرعاً على ما فعله دون اختياره، وذلك في حالة الخطأ والنسيان، أو في حالة الإكراه وزوال العقل بالنوم أو غيره، قال تعالى: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا**

إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[البقرة:٢٨٦]، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ، وَالنِّسْيَانُ، وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ »[1]، وعنه ﷺ أنه قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ »[2].

ويجدر بنا أن نقف مع هذا الحوار الذي دار بين الإمام علي عليه السلام وأحد أصحابه، لتتضح لنا الصورة جلية حول قضية الجبر والاختيار، ولنتعرف من خلالها إلى القول الحق الذي يجب أن نعتقده ونقف عنده، وذلك أنه روي أن أمير المؤمنين عليه السلام لما انصرف من صفين قام إليه شيخ من أهل الحجاز، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء من الله وقدره»، فقال الشيخ: في الله أحتسب عنائي ومسيري، والله ما أحسب أن لي من الأجر شيئاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لقد عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم ذاهبون، وفي منقلبكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين»، قال الشيخ: كيف يكون ذلك، والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟! قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لعلك تظن قضاءً لازماً وقدراً حتماً، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، وما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن

---

(١) رواه ابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ابن عباس .

(٢) رواه أبوداود عن علي عليه السلام، وأخرجه أحمد والنسائي وأبوداود وابن ماجة عن عائشة .

أولى بثواب الإحسان من المذنب، ولا المذنب أولى بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة إخوان الشيطان، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهداء الزور وأهل البغي والفجور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيرا، ولم يكلف عسيراً، ولا بعث الأنبياء عبثاً، ولا أرى عجائب الآيات باطلاً، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾» فقال: وما ذلك القضاء الذي ساقنا؟! فقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلام: «أمر الله تعالى بذلك وإرادته له»، ثم تلا: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [1].

ومما يروى في ذلك أيضاً أن الحجاج بن يوسف الثقفي كتب إلى الحسن البصري، وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، يسألهم عن العقوبة على أفعال الشر، وهل هي من أفعال الله تعالى، أو من أفعال الفاعلين؟

فكتب إليه الحسن يقول : ما سمعت في ذلك إلا قول عليٍّ، فإنه قال: «ألا ترى الذي نهاك دهاك؟! إنما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريئ من ذاك» .

وكتب إليه واصل بن عطاء: ما سمعت فيه إلا قول عليٍّ، فإنه قال: «أيَدُلُّكَ الطريقَ ويُلزِمُ عليك المضيق؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً» .

وكتب إليه عمرو بن عبيد: ما سمعت في ذلك إلا قول عليٍّ، فإنه قال: «إذا كان القضاءُ حتماً كانت عقوبةُ المأمورِ ظُلماً» .

فلما وصلت الكتب إلى الحجاج وكلها مسندة إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلام قال: قاتلهم الله أخذوها من عين صافية!! [2].

---

(١) حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان، الطبعة الأولى٢٠٠٣م، مؤسسة الإمام زيد.

(٢) عن كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، مؤسسة الإمام زيد.

خلق الأفعال

المتتبع لعقيدة الجبر يجد أنها انبنت على ثلاثة أسس:

الأول: أن كل شيء في الكون يحدث وفق مشيئة الله، وعلى مقتضى إرادته، ولا يمكن أن يحدث ما لا يريده الله ويشاؤه.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء وموجده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**اللَّـهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الزمر:٦٢]، والأعمال هي من جملة الأشياء التي تدخل تحت قدرة الله تعالى ومخلوقاته، قال تعالى: ﴿**وَاللَّـهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦].

الثالث: أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون، ولا يجوز أن يقع إلا ما علم الله أنه سيقع، بدليل قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّـهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد:٢٢].

ويمكن مناقشة هذه الأسس، وبيان هذا الإشكال، في جملة من النقاط، نوجزها فيما يلي:

أولاً: أنه قد ذكرنا سابقاً توضيح معنى المشيئة الإلهية المتعلقة بأفعال العباد، وهو أنه

سبحانه وتعالى هو الذي أقدر العبد على الإيمان والكفر، وأنه لولا تلك المشيئة لما كان بمقدور الإنسان أن يفعل شيئاً من ذلك، ومن هنا فإنه لا يصح أن نتصور أن الكافر ما كفر، وعمل السيئات والقبائح، واقترف المعاصي والجرائم، إلا لأن الله أراد له ذلك وقضاه عليه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان إلا الخير، ولا يحب له إلا الهدى والصلاح، قال تعالى: ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر: ٧]، ولكن الإنسان خالف أمر ربه، واتبع هوى نفسه، وانقاد لوسوسة الشيطان وإغوائه، يقول الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [النساء:٢٦]، ويقول جل وعلا: ﴿**وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء:٢٧-٢٨] .

ثانياً: أنه لا يلزم من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[الرعد:١٦]، أن تكون الأفعال من جملة الأشياء التي خلقها الله تعالى وأوجدها، بمعنى أنه فاعلها ومحدثها؛ لأن الخلق في الحقيقة هو الإيجاد من العدم، ولا يطلق في الأصل إلا على الأشياء التي لها وجود حسي، وهي الأجسام المدركة بالحواس، وأما إطلاق لفظ الخلق على ما ليس بجسم فإنما هو من باب المجاز، قال تعالى: ﴿**وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ [العنكبوت:١٧]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾[الملك:٢]، والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن القرآن لا يسمي الأفعال أشياء، وإنما سماها حسنة وسيئة، وخيراً وشراً، ونحو ذلك،

وبالتالي فإن أفعال الناس وحركاتهم وتصرفاتهم لا تدخل في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وعلى فرض أن الأعمال داخلة في الأشياء التي يمكن أن تكون مخلوقة لله تعالى، فلا يعني ذلك أن الله هو فاعلها على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز؛ لأنه لما كان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وأقدره على الفعل كان الفعل من خلق الله، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام في جوابه على رجل سأله عن أفعال العباد أهي من الله أم منهم؟ فقال عليه السلام: «هي من الله خلق، ومن العباد فعل، ولا تسأل عنها أحداً بعدي»[1].

فنسبة خلق الأفعال إلى الله تعالى كنسبة خلق الأشياء التي يصنعها الإنسان ويوجدها إلى الله تعالى، فكل ما صنعه الإنسان وأوجده هو من خلق الله تعالى، وهذا هو المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ حيث وردت هذه الآية في سياق تبكيت نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله لقومه في عبادتهم للأصنام التي يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٥-٩٦]، يعني والله خلقكم وخلق الأصنام التي تصنعونها بأيديكم وتنحتونها من الأحجار والأشجار.

فلا يفهم من الآية أن الله خلق الأصنام بمعنى أنه شكّلها وجعلها أصناماً، ولو كان الأمر كذلك لما عاتب إبراهيم قومه على فعلهم، ونهاهم عنه، ودعاهم

---

(١) رواه الإمام محمد بن منصور المرادي في كتاب العلوم.

إلى تركه، وإنما نسب فعل الأصنام وإيجادها إلى الله، كما ينسب فعل الأعمال الكبيرة والمنجزات العظيمة إلى الملوك والزعماء والقادة، فيقال مثلاً: الذي بنى الأهرام في الجيزة بمصر هو الملك الفرعوني خوفو، و الذي أنشأ معبد الشمس في مأرب باليمن هي الملكة بلقيس، و الذي بنى الجامع الأموي بدمشق هو عبد الملك بن مروان، و الذي فتح الأندلس هو عبد الرحمن الغافقي. . وهكذا، مع أننا نعلم أن المباني إنما بناها المهندسون والبناءون، والفتوحات فتحها الجيوش والعساكر، ولكن لما كان السبب في ذلك هم الملوك والقادة نسب ذلك إليهم على سبيل المجاز، لاعلى سبيل الحقيقة.

وكذلك الأمر في أفعال العباد، فإنّ نسبتها إلى الله تعالى على سبيل المجاز وليس الحقيقة، على نحو قول الله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧]، وقال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ**﴾ [التوبة:١٤]، غير أنه لا يصح أن ينسب إلى الله تعالى من الأفعال إلا الأفعال الحسنة، وأما الأفعال القبيحة وما تكرهه النفس وتستخبثه، فلا يجوز نسبته إلى الله تعالى، تأدباً مع الله تعالى جل شأنه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[النساء:٧٩]، ويقول سبحانه: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[الشورى:٣٠] .

وذلك على نحو قول إبراهيم- صلوات الله عليه وعلى آله- فيما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[الفرقان:٧٨-٨١]، فإن إبراهيم(عليه الصلاة

والسلام) نسب الخلق، والهداية، والإطعام، والإسقاء، والشفاء، والإماتة، والإحياء، إلى الله تعالى، ونسب المرض إلى نفسه تأدباً مع ربه.

وما حكاه الله تعالى عن نبي الله أيوب عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾[ص:٤١]، حيث نسب ما أصيب به من المرض والابتلاء إلى الشيطان .

ومن ذلك ما روي أن أبا بكر رضي الله عنه سئل وهو على منبر رسول الله ﷺ عن الكلالة، فقال: "ما سمعت فيها شيئاً، وسأقول فيها برأيي، فإن أصبت فالله وفقني، وإن أخطأت فالخطأ مني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، أراه ما خلا الوالد والولد".

ثالثاً: أنه لا يلزم من أن الله تعالى يعلم ما كان وما سيكون، وأنه لا يقع إلا ما علم الله سبحانه وتعالى وقوعه، أن يكون الإنسان مجبراً على الفعل ليتطابق الواقع مع علم الله بالغيب، وذلك لأن علم الله تعالى إنما هو كشف لما سيكون عليه المستقبل، ونحن لا ننكر أن ما وقع ويقع في هذا الكون كان في علم الله قبل أن يكون، وأن ما سبق في علم الله تعالى لا شك أنه واقع لا محالة، ولكن لا يعني ذلك بالضرورة أن يكون لعلم الله المسبق تأثير فيه، وإنما هو من باب علم الله تعالى بخلقه، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[الملك:١٤]، فعلم الله سابق لا سائق.

وإننا لنلاحظ أن الشركات التي تصنّع الأجهزة والآلات الدقيقة الحساسة تضع مواصفات دقيقة لتلك المصنوعات، وتتضمن تلك المواصفات بيان قدرة

الآلة، وطاقتها التشغيلية، ومراحل تقادمها، وعمرها الافتراضي، . .الخ. ـ ثم تدعم تلك المواصفات بجملة من الإرشادات لكيفية استخدام الآلة، إضافة إلى جملة من التحذيرات الواجب تجنبها عند استخدام الآلة، مع الإشارة إلى نوع العطل الذي قد يحصل عند كل مخالفة لكل نقطة من التعليمات الواردة، أو عند حدوث أي خطأ من الأخطاء التي حذرت منها الشركة ونبهت إليها، فإذا كنا نعلم بالضرورة أن علم الشركة المسبق بالأعطال التي قد تحصل للآلة نتيجة الاستخدام الخاطئ لها لا يعتبر بأي حال مؤثراً في الآلة لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة، فكذلك الأمر فيما يتعلق بأفعال الإنسان وتصرفاته- ولله المثل الأعلى- فإنها وإن كانت مسبوقة بعلم الله تعالى فليس لعلمه تعالى تأثير فيها، بمعنى أن الإنسان حين يعمل العمل فإنه بالطبع سيكون مطابقاً لعلم الله تعالى، غير أنه سيكون حال قيامه بذلك العمل قادراً على فعله وقادراً أيضاً على فعل غيره، فالذي يمشي إلى المسجد مثلاً قادر على أن يمشي إلى السوق، أو إلى أماكن اللهو، ونحو ذلك، فعلم الله تعالى المسبق أن الإنسان سيمشي إلى المسجد ليس هو الذي قاده إلى ذلك، وإنما قاده إلى ذلك حريته واختياره، ولذلك يثاب عليه، كما أنه يعاقب على ذهابه إلى أماكن اللهو مثلاً، وهكذا فإنه لا منافاة بين كون الله يعلم بما سيقوم به الإنسان ويفعله، وبين كون الإنسان قادراً على فعل غير ما هو في علم الله المسبق. والله تعالى أعلم[1].

تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه،،،

(١) راجع كتاب (أصول دين الإسلام) للأستاذ العلامة/ عبد الله محمد إسماعيل.

المراجع

١- القرآن الكريم .

٢- نهج البلاغة؛ الشريف الرضي.

٣- حقائق المعرفة ؛ الإمام/ أحمد بن سليمان .

٤- الإرشاد إلى سبيل الرشاد ؛ محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد.

٥- الموعظة الحسنة؛ محمد بن القاسم بن محمد الحوثي.

٦- مصباح العلوم؛ أحمد بن الحسن بن محمد الرصاص .

٧- ينابيع النصيحة في العقائد الصحيحة ؛ الأمير الحسين بن بدر الدين.

٨- نظرة وبيان في متشابه القرآن؛ عبد المجيد الحوثي.

٩- القضاء والقدر؛ العلامة: محمد محمد المنصور.

١٠- شرح الأساس؛ القاضي: أحمد بن محمد الشرفي.

١١- عقيدة المسلم؛ محمد الغزالي.

١٢- عقيدة المؤمن، أبوبكر الجزائري.

١٣- الحق الدامغ؛ الشيخ / أحمد الخليلي.

١٤- رؤية الله بين العقل والنقل؛ عبدالله حمود العزي.

١٥- صحيح شرح العقيدة الطحاوية؛ حسن السقاف.

١٦- التنديد بمن عدد التوحيد؛ حسن السقاف.

١٧- دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه؛ ابن الجوزي؛ بتحقيق حسن السقاف.

١٨- تفسير المصابيح الساطعة الأنوار؛ القاضي: أحمد بن محمد الشرفي.

١٩- الزيدية نظرية وتطبيق؛ علي بن عبد الكريم الفضيل

٢٠- الإصباح على المصباح؛ إبراهيم بن محمد بن أحمد بن عز الدين

٢١- المجموعة الفاخرة للإمام الهادي؛ تحقيق الأستاذ/ عبد الله الشاذلي

٢٢- رسالة إبليس إلى أخوانه المناحيس؛ الحاكم الجشمي

٢٣- الإيجاز في الرد على فتاوى الحجاز ؛ العلامة : بدرالدين الحوثي

فهرس المحتويات